قضبان الروح

قصص

أحمد حميدة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

رئيس مجلس الإدارة:
د. ناصـــر الأنصـــارى
رئيس التحرير:
د. سهير المصادفة
مدير التحرير:
السَّماح عبدالله

الإشراف الفنى:
صبرى عبدالواحد



* الأعمال الواردة للسلسلة لا ترد سواء نشرت أم لم تنشر .

* تسلم الأعمال باليد إلي إدارة التحرير، أو ترسل بالبريد باسم:
رئيس التحرير: القاهرة - كورنيش النيل - رملة بولاق - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حميدة، أحمد محمد

قضبان الروح/ أحمد محمد حميدة. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

١٣٢ ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك ١-٢٠٠- ٤١٩-٩٧٧.

١- القصص العربية

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٩٠٦ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977-419-200-1

ديوى ٨١٣

عزلة

وضع لهـا التليـفـون فى الحلة الألومنيـوم. ووضع الحلة فـوق الغسـالة المركونة فى المساحة الفـاصلة بين المطبخ والصـالة بحيث يتضخم صوت الرنين ويتعالى وينفذ عبر غشاوة الأذن التى تراكمت بتلاحق السنين..

كان عليـه وإخوته المتفرقين بـأرجاء البلد/ أطفـالهـا الكبـار/ أن يكافح – وهم – مشـاعر الوحدة التى صبغت روح الأم. وحدة تكونت فى البيت الأول عاما بعد عـام. أحست بانتشـارهـا التكوينى البطىء كلمـا غـادر ابن أو بنت للزواج. تـاركين لهـا فراغـا موحشـا كـان ينمـو رويدًا بالزوايا إلى جـانب ولد أخيـر استبـد بالبيت الفـارغ عازفـا عن فكرة الزواج لأمـر يضمـره بقلبـه. أمـر يدرك إخوته فحواه، إدراكهم لأهمـية انتشـال روح الأم من أغـلال الوحدة المتـفـاقـمـة التى تثـقب القلب لينـزف حنانه مـقـتًـا وقنوطًا. كـانوا يحـسـونه فى زياراتهم المتباعدة، أو يسمعونه جليا كلما تحدثوا إليها بالتليفون..

اخص.. هكذا تزوجتم وتركتمونى.؟ اخص..

ويأتون - بالتناوب - كل واحد يأخذها مرة عنده مستضيفًا. وعليها أن تحدد فترة المكوث حسب مشاعر القبول لديها نحو الابن المستضيف. تحدد وقت الإقامة. حسب سمات وجه الزوجة وتعبيراته المتغيرة مع مرور الوقت.. وجه تقبل البقاء فى ظله. يومين.. أسبوعًا... أو.. وجه تنزوى من اعوجاج لسانه وطرف فمه.. وجه يحملها لسانه العطوف فتطول الإقامة.. ويتحدد الوقت - طولا وقصرا - حسب طرق الطهى والتنوع فى صنوف الأطعمة التى تحب، وتلك الأخرى التى يقررها الطبيب..

الزوجة المخالفة لقانون الطعام المقرر تكون كارهة، متذمرة لطول الإقامة.. الدهن الزائد فى اللحم الأحمر، علامة واضحة على الزهق والتبرم الخفى، ويتوجب إلقاؤها لابن آخر، وبيت آخر..

تحمير الدجاج دون سلق، وطريقة التقديم المتأخر عند التوزيع، وعدم عمل شوربة خضار، معنى مفهوم للضيق والإطاحة المهذبة. ليتلقفها ابن آخر، أو بنت أخرى.

على الابن المتلقف حمل العظام المنخورة بسوس السنين. خشونة الجلد الذى ترهل. البطن المشفوط الذى أفرخ بطونا أخرى تفرقت عبر متاهات الدنيا..

فى هذه المساحة الفاصلة بين الصالة والمطبخ، يمكنها السماع لو كانت بالمطبخ أو الحمام، أو وقت قعودها المختار فوق الأريكة..

أغلق الابن زجاج النافذة المطلة على الشارع..

وأغلقت زوجته باب الشرفة.. حاجبين بذلك صخب النهار الطالع.. وقبلاها وهما يتأهبان للخروج، مؤكدين عليها ألا تفتح الأبواب، خاصة باب الشقة لأى طارق - وذلك يحدث نادرا - فالجيران المحيطون، والباعة الذين يترددون على المنازل، يعرفون، أن عليًا وزوجته موظفان، ولا يكونان بالبيت من باكورة الصباح إلى ما بعد المغرب.. وأشار عليها - موضحًا - كيفية استعمال التليفون الجديد، وطريقة ضغط الأرقام التى تشبه أزرار القمصان. فى حالة رغبتها المألوفة فى التسلية، لإضاعة الوقت الموحش. بطلب أحد أبنائها. مؤكدًا - رغم ذلك - أنها غير مضطرة لطلب أحد منهم. فهم يطلبونها يوميا حسب نظامهم الوقتى المعتاد - نظامًا لا يحيدون عنه. بعدد ساعات اليوم بحيث يكون النهار كله اتصالات، وكلام..

فى مطلع النهار - وحتى وقت العصر - يطلبها البنات. واحدة لمعرفة الصحة وسير الأمور.. وواحدة - بعد طول الحديث - لتذكيرها لتناول الدواء المقرر بكل أنواعه للضغط دواء.. للمعدة دواء.. وللعين دواء.. و..

أخرى تنبه عليها بعدم الإكثار فى تناول الأكلات الحريفة التى تحبها. أن تبتعد عن أكل الرنجة وأم الخلول.. ولا تتناول اليوم غداء. فنجوى - الأصغر سنا - أعدت لها حلة المحشى الذى تحبه - منذ الأمس -.. وأنها سوف تأتى به اليوم ظهرا..

أبناؤها الرجال يبدءون فى الاتصال، والمحادثة والدردشة، فيما بين وقت العصر - وبالتوالى - حتى الغروب، للتسلية، والتغلب على فراغ الوقت الوحشى الذى يريك مشاعرها ويهيج بالدماغ الذكريات الموجعة. وهى بذلك البيت مع الأخ على وزوجته اللذين لم يرزقا بأطفال بعد..

فى فراغ الحلة - بجوار التليفون - ترك لها ورقة من الكرتون المصقول منقوش عليها أرقام الإخوة بخط واضح وكبير. أرقام دون أسماء.. تعرف هى رقم كل واحد بالشكل، بإحساس مبهر وغريب، وكأن ملامح كل ابن مطبوعة على مفردات الرقم. ومميزة كل صوت - عند الطلب - من أول نبرة.. تبسمت. وتقاربت أخاديد الوجه الطيب الذى اهتز رأسه بحركة شبه تهكمية، لتشعر الولد وزوجته بمدى ذكائها. وتجربة السنين الطوال حيال ضآلة سنواتهما القصار.. مفكرة فى ضحكة الزوجة التى أكدت عليها - هى الأخرى - بود فائق الاضطراب الدفين، وهى تتجه نحو باب الشقة. ألا تقرب زر التليفون السفلى. والابن التابع - بالوراء - يتبع نفس القول الذى يشبه التحذير.. ويقول..

- فقط.. هذا الزر.. يا أمى. لا تقربى منه.. الزر التحتانى.. لا تقربى أصبعك منه.. وإلا..

(وإلا..؟!؟). لم يكن بالإمكان تكملة القول التحذيرى، فقد توهج رأس العجوز بالغيظ لتحذير الزوجة، وتابعها الذى اتبع سيرها نحو الباب..

لف الوجه وجوم مباغت. انكسار كهرب البدن ونكس الرأس. كأنها طفلة حمقاء سوف تلهو بحاجاتهم المتروكة أمانة لديها.. طفلة يخافان تواجدها وحدها بشقة واسعة..

لكنه توقف مبتسمًا · رغم ذلك - قائلاً: إن لها حرية التصرف. وأن تفعل ما تريد. فقط.. ألا تقرب الزر السفلى..

ومض بالذهن خاطر روع التلافيف.. احتل الزر جانبًا مهمًا من الإدراك، مع محاولة مرهقة لفهم ما يجرى لها. فلوى التهكم جانب الفم. وهما يفتحان الباب،.. أحس الابن بأن أمه قد غضبت. هى لم تنطق. فقط انتكاسة رأس.. و. الباب يفتح، ويغلق. ويدور بثقبه المفتاح ليمتد لسان «الطبلة». ليعم الصمت.. صمت تناثر فى الأركان رويدا.. اجتاح غرفة النوم المفتوحة - متسربًا تحت أعينها والحواس - إلى غرفة الصالون إلى المطبخ. يتفاقم، ويتراكم. يغزو صدرها الضيق.. يحتويها.. لماذا كررا تحذيرهما السقيم.؟ لماذا. وذاك الزر بالذات..؟! أهناك سر محجوب، وكامن وراء الزر..؟!

سر من الأهمية والخطورة بحيث توجب الحذر منه هكذا..؟؟

سر أشعرها بالدونية والضآلة. والصغر كطفلة تافهة..

خادمة أمينة جاءا بها لتحرس لهما الشقة. وليست أمًا واعية أنجبت ذلك الحشد الهائل من الذكور ومن الإناث. والطابور الطويل من أحفاد تخطئ كثيرافى إحصائه..؟؟

كان الوجه ينصاع للتجهم، ولمعرفة سر الزر.. لكنها قالت فى نفسها: لا دخل لى بما يفكران به.. يمكن جلب الشر لهما وتعكير صفوهما. فأزاحت الزر عن الذهن. وأحالت تفكيرها - عنوة - إلى النظر فى التليفون، وانتظار مكالمة ابنتها سعاد وزوجها الطيب.. تراوغهما - دائمًا - المشاكل والشجار.. سعاد تتصل، وتفضفض.. تحكى عما تشعر به من ضيق العيال والزوج الذى قل مرتبه بعد إحالته إلى المعاش المبكر..

عليها أن تنتظر المكالمة الآن لتعرف أحوال البنت. ولتفضفض هى الأخرى. وتحكى عما فعله على وزوجته وتحذيرهما البغيض.. تحكى ما حدث بالتفصيل الذى - ربما - يريح القلب. ولتهدئ البنت وتنصحها بعدم انصرافها المستمر عن فراش زوجها ونومها أحيانا وسط «عيالها».. ولتسألها عن ذلك الزر المحظور منه الاقتراب..

إلا أن الزر والتحذير تغلبا على الدماغ، وأزاحا - لبرهة - انتظار مكالمة سعاد.

ترى. ما سر الزر اللعين الممنوعة عنه؟ والمسموح لها بالضغط على الزرابر الأخرى التى تشبه زراير القمصان؟ سر تعمد الولد وزوجته - بالاتفاق المعلن - على كتمانه..؟

سر أغمد بالقلب مشاعر الكآبة والغربة.. هى مجرد زائرة. ضيفة عابرة.. تثاقل مع الوقت المار لتصبح غير مرغوب تواجدها الزائد على الرغم من مشاركتها فى اختيار هذه الزوجة.. هل تبدلت الطيبة والود بعد زواجها من الولد..؟

أليست هى - أيضًا - التى شاركت فى تأسيس البيت؟ أيكون ذلك جزاء ما قدمت؟! ثمانون عاما تتخايل بغضون الوجه. تتغلغل فى القلب. وبغتة. تتساقط وتضيع..؟! لا عليك.. بناتك أرق وأطيب قلبًا من الصبيان..

الآن.. التليفون سيرن.. ويتضاعف رنينه بواسطة جدران الحلة.. سعاد تأخرت قليلا.. ربما تقوم بترتيب البيت.. ابنتها نجوى الصغرى، سوف تتصل حالاً. قبل مجيئها بحلة المحشى، التى وعدتها بها أمس ليتغديا معًا.. ستوفر بعضا منه لعلى وزوجته.. يعودان هما بعد الغروب جائعين.. ولكن.. أيمكن أن يقوم المحشى زوجين تعبين؟ سحبت الغسالة قليلا من موقع الأريكة لتكون الحلة أكثر قربا. تطلعت بنظر قلق، ومنتظر إلى الأزرار - لبرهة - أرجفت الروح.. تناهضت، تتكئ على مفاصل شابها الصدأ.. فلتشغل النفس بما يمرر الوقت الذى بلا رنين.. فلتذهب وتخرج دجاجة من الثلاجة، وتنقعها فى الماء ليفك ثلجها، ولتعد لهما ما يسندهما. ولتأكل هى ونجوى بعض «المحشى» لكن صدأ المفاصل، وانتظارالرنين، وخشية مغادرة موقع التليفون، وإمكانية عدم السماع - لو ذهبت - أعاق الحركة وأقعدها ثانية.. مع توقع مرجف، مرهف. منتظر.. فليأكلا من المحشى. ولتترك الدجاجة لغد.. توفيرًا. وانتظارًا... ألا بد أن يفعلا.. كل يوم.. تشعر هى بذلك الفعل ليلاً.. صحة الولد أهم.. الولد الذى حذرها من الزر. الزر يلهو بالدماغ. يمحو كل ما يخطر على البال. يزيح رغبة المقاومة فى إبعاد الأصابع التى بدأت ترتجف بين الإقدام والإحجام..

مــاذا لو ضــغطت على زر اســتــبــد وتوغل بالذهن مكابرًا متضخمًا..؟ لن ينقلب حال الدنيا، أكثر مما هى عليه.. لن يشتعل الكون، مثلما القلب المتقد غيظًا ورغبة.. ضغطة أصبع واحد يحل الأمور ويريح النفس..

ضغطة أصبع، وبعده يرتفع الزر تلقائيا. ولن يكتشف شيئا/ إلا لو كان هناك حريق سيقوم أو دمار سيحدث أو أشياء غامضة ومطمورة - عندئذ - تتجلى لها وتعرفها. المخبوء والمستور.. من حقها أن تعرف كل شىء عن الأبناء إلا لو كانت الزوجة ترغب فى إخفاء الأسرار عنها.. أعيدى يدك المرتجفة ذعرًا ورغبة إلى حجرك.. أبناؤك سوف يتصلون بعد حين.. بعد بلوغ الشمس منتصف الشارع الواضح من النافذة.. الشارع الذى بدأ يتحرك خلاله البشر.. سيعلو الرنين فى الحلة، ويطغى على الفراغ المحتل المستبد المتساقط مع الصمت.. رنين يجلب إزعاجا مؤنسا وجميلا، مقاوما للكآبة المتلاحقة. رنين يعقبه فضفضة وحكايات، ومعرفة لأحوال الدنيا. إزعاج حين يبلغ الرأس يكون لطيفًا. شفوقًا. يشعر المرء بكونه عائشًا. ملتحمًا بالآخرين عبر خطوط الاتصال.. يطلبونها هم للتزود بالدعاء والنصح والمشاركة الودية لمواصلة الحياة.. يشعرونها برغبة العودة والحنين إلى الحضن الرحيم.. أبناؤها العمال. الموظفون. الموزعون بأنحاء المدينة.. يتوقون للاطمئنان على كونها عفية وقادرة - ما تزال - على بث الحب والتعاطف الجميل. وأنها تمشى. وتأكل وتبصر، وتسمع، وتفعل تحت تواجدهم كل ما تحب وترغب ويروق لها.. فلم لا تمد الأصبع وتضغط..؟؟

الأصبع المحكوم بأصابع أخرى حتى لا ينفلت ضاغطا .. فتتفاقم وهن كل الأصابع المرتجعة ذعرا ..

لم لا تفعل وتضغط؟

ابنها المقيم ببيت العائلة الأول، سوف يطلب هو أيضا .. ليطمئنها على أحوال الشقة التى أصبح يشغلها وحده .. يجب أن توعيه وتحذره من إسرافه المعهود فى إضاءة كل لمبات الغرف بوقت واحد. وليتأكد من إغلاق صنابير المياه ولا يتركها تسرسب. ولا ينسى أنبوبة الغاز مفتوحة بعد استعمالها. ولا يشغل التليفون بتوافه الحديث مع أحد ولا يطول. يكفى أن يطلبها فقط ليكونا معا على اتصال، وحتى لا تتعدى الفاتورة حدود ثمن الاشتراك.. و .. ولا ينام قبل أن يغسل رجليه .. و ..

شكل الزر يتعملق ليصبح على شكل الجهاز، مستديرا. متضخما منعكسا على الدماغ،. يحتويه .. يرعده .. يكبس على القلب. لتتفاقم الارتجافات، يشوش على الذهن. ضاغطا على لين العظام .. فأمدت الأصبع .. أمدته بقوة مباغتة ..

و .. ضغطت........

ضغطت ورفعت الأصبع. ليعود الزر كما كان. متواجدا. دونما حدوث أى شىء غير مألوف .. فقط. أحست براحة تغزوها وتعيد مشاعرها إلى حالتها الأولى .. متوائمة ..

ضغطت.. وفقط.. لم يحدث شىء..

الآن تستطيع أن تتربص للتليفون. تنتظر الرنين تكدس كل الحواس فى الإنصات المركز المنتظر المتأمل المأمول. وهى قابضة - بشعور شبه منتصر - على أصابع الكفين.. محاولة - بشعور النصر- تسكين تلك الارتجافات المراوغة التى تملكت أطراف البدن، وساورت الأعصاب المنحولة كخيوط من حرير يهزها الارتجاف الذى لم يتوقف، وتحسب انسحاب الوقت من خلال النافذة وضوء النهار الذى راح يزاور الصالة.. الشمس تحبو لم تزل وراء البيت. حبوا حثيثا، ملولا..

فى الضحى تصعد الشمس على السطح، وتغازل واجهة البيت المقابل تتمشى فوقه لتنبه العجوز باكتمال الضحى. ليراوغ القلب هاجس مضطرب، أوعزته لضرورة انشغال سعاد وتأخرها بعمل آخر - لابد - مضافا لترتيب البيت. هذا إن لم يكن السبب عراكا مع الزوج..

قلق تفشى وأسلم النفس لقلق آخر..

كان يجب على نجوى أن تتصل الآن، وتفى بوعدها السابق - يوم أمس - بالحضور عند الضحى.. أيضا ولدها ساكن البيت الأول، يراود الرأس.. لكنه يصحو بعد الظهر.. هو يتصل عادة بعد أن تسقط الشمس على أرض الشارع الفاصل بين البيت والبيت المقابل..

ومض بالذهن تليفون نجوى المحمول الذى تستطيع الكلام منه فى أى مكان، ولو كان ذلك المكان دورة المياه..!

والوجه القانط شدت أخاديده بالتخوف وتوقعات الحوادث البغيضة. أيمكن حدث لها أو لزوجها مكروه؟.. مكروه أقوى من رغبة الاتصال والاستعلام عن الأم؟

خفقات القلب الواهن، تطامنه بالنظر والتوقع المأمول.. تعدل الجذع المركون على مسند الأريكة الخلفى، يتحفز ذراع يتوق لرفع السماعة بعد الرنين الذى سوف يحدث الآن.. حتما.. الآن ستمد اليد المهزولة. وتعد «شخطة» صبر نافد منزعج لأول متحدث إليها..

لكن اليد تثاقلت مع فشل التوقع وانحلال تشابك الأصابع، والذراعان اللذان تهدلا فى الحجر بصبر بدأ ينمو مع توقع آخر لرفع السماعة للتأكد من وجود الحرارة بالخط.. مفكرة بالوقت نفسه فى خوفها من عملية الرفع. فربما تتزامن لحظة الرفع مع لحظة إدارة قرص الطرف الآخر من الخط، فيجد - بهذا - الخط مشغولا.. فأحجمت، وتركت يدها بالحجر ترتعش. متربصة بأعين أجهدها النظر فى الجهاز.. عين لم تربش.. متوهجة الظن بالولد وزوجته اللذين غادراها منذ زمن الصباح الذى أصبح نائيا. ولم يطلباها كمألوف الحال فور وصولها إلى العمل.. لكنها أوعزت تأخرهما إلى زحام المدينة الصباحى الذى - حتما - أعاق وصولهما.. لكن هو الآخر يحمل تليفونا.. ويمكنه الاتصال من أى

مكان.. إلا.. لو.. أعوذ بالله من الشر.. ربما نسى.. تضايق.. أنسته زوجته بكلام آخر.. ربما.. وهل ينسى بذلك طلب أمه..؟

كقنفذ تكورت. ضامة عظامها واللحم، متداخلة الشعور كالمثلوجة تحاول استجلاب الدفء من الانتظار المتطاول الذى فاقم الوهن.. هل انتابهم الضجر منها. من رعونتها والتهكم وأسئلتها المحرجة - أحيانا - عن أدق أمور أولادها..؟؟

تسألهم جهارا عما يكسبون وينفقون. وحتمية ادخار ما ينفع بأوقات الشدة والعوز.. حشر أنفها فيما لا يعنيها..؟؟

هل شعر نساؤهم بالسأم من مناظر التملق ومساندة الأزواج دون الزوجات؟ أو ضايق الأبناء الصغار تدليلها للكبار الذين جاوروها العمر الطويل؟ من أول الابن الأكبر الذى أشعل البياض رأسه، ولا تطالبه بمصروفها المعيشى الشهرى المقرر عليهم جميعا. هل تفعل ذلك لأنهم يعيلون أولادا كبارا آخرين.؟ نعم. نسوة الأبناء الصغار يبتسمن ظاهريا. حين تطلب منهم المصروف. لكن ينقمن عليها باطنيا - ومؤكد - يتمنون لها الرحيل جميعا.. الأزواج الصغار كثيرا ما يداخلهم شعور بالهزء والاستخفاف أمام زوجاتهم المتهكمات عليهم سرا.. هل يتمنون لها الرحيل حقا..؟

تشعر دوما بأن أحفادها يلعبون كثيرا بمشاعرها ويعتبرونها امرأة عجيبة جاءت من العصر الحجرى. امرأة صدأت، وجدران قبرها المفتوح ينتظر..

أيمكن أن تنبذ بعد ذلك العمر..؟

هؤلاء الأطفال - رغم ذلك - كانوا يشعرونها كلما تواجدت بينهم، بأنها طفلة عزيزة.. طفلة عجوز ترتع وسط الأهل بالبيوت المأهولة بالعيال.. وكان الوقت يمضى. النهار يركض.. الليل يصبح قصيرا بلهو العيال، وصراخ الزوجات. وشجار الرجال. كان إزعاجا عظيما محببا على الرغم من أنها لم تكن تدرك أو تسمع أغلب ما يجرى خلاله.. لكن الوقت كان يمضى.. يركض.. الوقت هنا يختلف بهذا البيت الساكن المهجور يختلف.. لا أطفال. لا رجل الآن. ولا امرأة.. ولا رنين.. رنين.. رنين مزعج يسلى المرء ويشعره بالحياة..

التليفزيون بركن الصالة هامد، تعلوه النافذة المطلة على الشارع، والمؤصدة بوجه الشمس التى بدأت زحفها على منتصف الشارع..

يساور الدماغ وجع متسلل.. يد آلية الحركة تخلع الطرحة. ليبدو الدماغ منحول الشعر. متوقفا عن التحرك فى محاولة لكتم أى صوت يمكن أن يشغل الذهن عن الإصغاء. وهى تعيد ربط الطرحة كاظمة أنفاسا توزعت بالأوردة الملساء مع شعور باختناقات أزادت من ارتجافات اليد، مع بدايات اختلاجية راوغت الوجه. تحت رغبة ملحة لتحريك اللسان الساكن بقعر الفم.. تود لو تهمس بشىء لنفسها. شىء أقرب إلى المناجاة وفك الاختناق الصمتى..

لكنها آثرت السكون الوحشى الذى ينضح بأركان الحوائط ويتجدد متطابقا كلما رغبت فى النطق، أو الهمس.. أو إصدار أى تحرك.. فأدنت الأذن العارية من الطرحة الملساء، من الحلة. التصقت بجدارها الألمنيومى الخارجى البارد، مع تخمين مرعب - بأنها - ربما قد انتاب الأذن صمم آخر على الصمم المألوف..

اقترابا كان - آخر - أذاب بالقلب مشاعر اطمئنان آمن تعلقت به سلفا.. لا بأس.. سوف يرن الجرس دون أن تسمع.. سوف يتصلون - رغم ذلك - وهى لا تسمع.. سوف يساورهم الشك والقلق - مؤكد - ويعاودون الاتصال. و . يجيئون - هلعين - واحدا بعد واحد، معتقدين أن مكروها كان متوقعا ومنتظرا قد وافى أمهم. لاقت ما يلاقيه كل البشر وهى وحدها بشقة الأخ..

إن الصمم المطبق قد حدث بالفعل.. سوف يأتون..

تضامنت كل الحواس فى العيون مع الحلة والجهاز الجامد.. بهدوء.. حركت الساقين. حركة لا تسمح باحتكاك قماش الثوب مع نفس القماش. فردتهما مرة. وثنتهما مرة.. فردت الذراعين بوهن.. وثنتهما.. واسترخت.. فتحت فمها المكرمش المضموم. وخلعت الطرحة التى كانت طوقا حديديا يسد مسام الرأس.. وأعادت ربطها.. أيقنت أنها مازالت عائشة، مقيمة فوق الأريكة.. تتحرك، وتنتظر..

مؤكد فكَّر العيال فى التخلص منها بهذه الطريقة. إلقاؤها هنا لدى ابن حرم عليها استعمال زر..؟!

زر تناءى بها عن عالم الأحياء..

هاجس طواها. الشقة - لابد - هى مثواها الأخير..

الجرس لم يرن..

لم تعد قادرة على التحرك من جانب التليفون..

انتابت الجسد شبه المتجمد نوبة هواجس مرتعدة..

غمامة بالعينين تضغط لتزيغ الرؤية وتباعد الجهاز..

توقفت عن أية حركة يمكن أن تساعد على تباعد الرنين لو رن.. كانت الشمس المراوغة تدنو.. على مهل.. وبسرعة.. بجنون.. بهدوء.. من واجهة البيت المقابل..

شمس تكاد أن ترتقى طرف شيش الشباك المفتوح، وتوشك على ارتقاء الإفريز.. وتلامس الزجاج بخفة.. لتعرف أن الوقت لم يزل ظهرا. موقنة أن الزمن قد توقف هنا.. كومت أطراف البدن.. التصق جانب الوجه بجدار الحلة.. مؤكد.. أحد سوف يطلب.. أحد سوف يأتى.. أحد سوف يسأل.. الدمع الذى ترقرق يتقاطر. قطرة بعد قطرة.. دافئا كان، غامرا للوجه.. الأخاديد.. يطامن القلب.. لم تزل تشعر به. يدفئه. يبلل الفم..

هناك شمس تتمدد خيوطا فوق الأرض. تصنع مربعا بحجم نصف إطار النافذة.. حسين سوف يطلب.. ملتح هو ويصلى.. هذا موعده.. سوف يسأل.. الآن.. ماذا حدث لسعاد.؟ ماذا حدث لنجوى..؟.. وسيد.. إبراهيم.. حسن.. بدوى.. سيدة.. ماذا حدث للعيال..؟

وضعت الحلة على الأريكة. ونهضت قائمة.. هرولت نحو الباب.. سحبت الترياس الذى أوصده الابن صباحا.. وعادت

تمددت فوق الأريكة، لاصقة الرأس بالحلة. لامحة بجانب عين، مساحة الشمس الممددة على الأرض، وقد صارت أكثر نحولا.. قطعة مريعة وهزيلة، كانت تغافلها وتنحل، وتتقاصر، منسحبة كضيف قضى وطره وآن رحيله..

بهدوء، أسجت البدن على الأريكة. فى محاولة لمحو التعب الذى أسكن الارتعاشات قليلا وأسكن الروح لسكون لذيذ يخالطه انتظار مأمول..

تأبطت الحلة على الصدر بود حميم، تاركة الخمود المتذ ينخر فى الجسد والأوردة بين انسحاب آخر خيط للشمس على الأرض.. يرتفع على السياج، وتنزوى ببطء إلى ما وراء المبنى المقابل. ليسود الشقة ضوء رمادى شاحب انحط فوق الصمت الموحش. صمت خدشه صوت إدارة مفتاح فى قفل الباب الذى أصدر تزييقا رتيبا، أعقبه أصوات ضاجة بعيدة وتتقارب. ثم صوت الزوجة تهمس لزوجها..

- (افتكر أنها نامت..) وزوج يقول هامسا. (لعلها شبعت نوما..). ثم أقدام تحث الخطى خشية إيقاظها. ثمة أصوات الضجيج تتداخل. تدنو.. تتساءل وتدنو..

كان الهلع قد اكتنف الابن المتقدم.. انحنى، ورفع عن صدرها الحلة بالتليفون. مسجيا ذراعيها الرخوتين إلى جانبها دون صوت.. قال وهو يرفع الجهاز من الحلة..

(أنتِ ضغطى على الزر يا أمى.؟ قفلتى الخط..؟! قلت لك لا تقربى هذا الزر.. قلت لك..!! أبناؤك جميعا قادمون إليك الآن..)

ألا إنها لم تنطق.. لم تتحرك..

وهو يحمل الحلة..

ولم يلحظ الدمع المخبوء بين الأخاديد ..

ولم يلحظ اختلاجات الشفة المزمومة التائقة إلى الصراخ والبكاء برغبة مكظومة..

ولم يلحظ آثار الدمع وأبخرة الأنفاس على جدار الحلة.. فى حين جاءت زوجته بغطاء صوفى ثقيل، وألقته على البدن المطروح.

حرب الحوائط

الشارع المسفلت المستطيل المدهونة بناياته العتيقة بالأصفر القاتم ينام.. المضاء أرصفته الملساء بنيون متاجر الزهور والبوتيكات المبهرة، يتوسده ليل مستغرق فى السكون.

داهم سكونه - وأسماعنا - صفير مباغت وحاد.. أزعجنى.. والجدران.. من إحدى الأزقة المعتمة جاء.. يسبقه دخان كثيف أبيض، طيب الرائحة.. يتطاير.. من ورائه ظهر بدن الشاب النحيل، حامل الصفارة والمبخرة. يكسوه ثوب قديم أخضر. معصوب رأسه المشعث بعمامة خضراء تتطاير شراشيبها - مزق القماش - فوق وجهه الأبيض المشرب باصفرار قاتم.. كان يتراقص ويدور كمن يتملص ويتخلص من حصار.. ضحك صديق كان يجاورنى المسير.. همس..

- أتعرف مَنْ هذا..؟

تبـادر لذهنى - وتجـسـد - رجل تاقت عـيناى لـرؤية مـلامـحـه سـألته وزمن قريب - كان - يتداعى..

- من هو..؟

- هذا هو الرجل «الدولى».

لون مـلابسـه نبـهت مداركى لكتـابة خضـراء رأيتهـا كثـيـرا على جدران المدينة.

- صدقنى.. توقعت ذلك..

تتبلّور حوائط المدينة فى ذهنى.. النقوش المكتوبة فوق المساحات الفارغة، وبالخط العريض الغاضب الواثق. المندد. الساخن

(انقذوا القدس من الصهاينة). (فلسطين تتآكل).

(إسرائيل مرض مزمن بجسد العروبة).

منقـوشـة فـوق أسـوار مـحطات قطارات أبى قـيـر.. خطوط ممددة.. متـعـارضـة.. مـتـشـامـخـة.. بطول عـربة قطـار.. وتوخـز الصدر.. وتشعر المرء بالخزى..

تائقًا كنت لمعرفة ذلك المكتـوب اسـمـه إلى جـانب النـقـوش بخط يحاذى بدن رجل صلب.. توّقا لرؤية شكله..

أحقًا هو رجل مثلى من دم ولحم وأعصاب.؟

أتوق مثل كل البشـر القـائمين فى المدينة.. النائمـين وراء الأسـوار والجدران.

والهائمين نهارهم بالشوارع.. لم يره أحد.. ولم يستطع أحد تحديد شكله، أو خط سيره، وتحركاته.. همًا فاقم لدى رغبة الرؤية والتطلع والفضول..

بالليل كان يكتب - مؤكد - الليل الذى لم يشهده إنسان.. الليل الآخر الغريب، المطوق بالحذر. المتوحد بالغليان، والتوجس . الغارق بالثبات والدلهمة..

كيف يحمل دلوه الملآن «بالبوية» الخضراء، وفرش دهان الحوائط والتى ينقش بها كلامه..؟

من أية منطقة بالمدينة.. يمشى. عابرًا تلك المسافات؟.

وهل يحمل فوق كتفه سلمًا خشبيًا ليتسلق به الجدران؟

الجدران العالية.. فراغات براويز الكبارى.. أسفل شرفات المنازل المتاخمة لأسوار المحطات.

ليلاً - يقينًا يجوب سكك قضبان القطارات الطويلة الرابطة بين المحطات.. يتخطى الفلنكات بعد نوبة نوم القطارات.. صاعدًا تلك الحوائط والكبارى.؟!... لكن....

فى صباحات أخرى.. متباعدة.. يدهشنى التغير الطارئ على الجدران.. فالعبارات تكون ممحاة من فوق البنايات التى تصادف طريقى.. ممحاة، أو مشطوب عليها بدهان قاتم مقزز. متعرج، مطاردًا - بنزق - عشوائى - للحروف حسب كتابتها. لون أسود، أو بنى. أو مزيج من زيت وشحم لتبدو الحوائط مشوهة سافرة. تشويهًا يرفضه النظر ويبغضه، ويخنق الروح... لكن...

بأيام أخر.. تغمرني دهشة مبهجة، فعلى نفس الأسوار والجدران، أجد نفس الكتابة الخضراء.. أكثر تنديدًا. أقوى تلميحًا.. (حمير + إسرائيل = دمار). مكتوبة بأسفل الشطب، أو بأعلى الشطب.. كمن يتحدى (سنحارب العدو فوق الجدران..) يتحدى هؤلاء المجهولين الذين يقتفون أثره. يتتبعون نقوشه بدأب ويمحونها متعمدين.. نقوشه التى تشوه - كما يزعمون - الوجه المشرق للمدينة.. المناطق الأكثر تألقًا واحترامًا، والمتاخمة لشواطئ البحر الهادئ الجميل، والمحفوفة بالعمارات الشامخة البيضاء، ذات المساحات الخالية بالواجهات.. مؤكد ..قاطنوها الموقرون يخشون ذلك الشبح. أو الطائر المزعج الهوائى المتسيب. الهلامى المجهول، اختراق ليلهم المستقر - وهم غافلون - وملأ المساحات بكلام يثير شجن الشامتين.. ويخشون - كانوا - من فراغ أرصفتهم الرخامية الملساء المزحومة بأفخم السيارات المرصوصة جنبا إلى جنب.. تلك التى ينعكس عليها ضوء القمر الحانى ليلا، ونهارا تغمرها شمس عطوفة..

شمس مغايرة - مؤكد - لشمس تطل بصخب، ولهب ينغرس كالنصال فى أبدان بشر مناطق بطن المدينة القديمة.. هناك لا توجد كتابات على الجدران.. ربما.. لكن يدهشنى تحديه الصامت.. كم رجلاً - ترى - يقتفى أثر نقوشه..؟ وهو رجل واحد... واحد.. لم يكتب بكرموز. غربال. غيط العنب. اللبان. كوم الشقافة.. راغب.. لماذا..؟ الآن الفقر المستبد يقبع بالبيوت القزمة التى يقطن البشر كل مساحات الفراغ بها.؟ على الجدران

والدهاليز والأرصفة. معلقون كثياب التعب المنشورة على حبال النوافذ الصغيرة الواطئة. والمتحايلون على الأرزاق، يقيمون - بالواجهات - حوانيت الخضار، والفول، والسمكرة. وبقية الأرصفة مشغولة بطوابير الخبز المصلوبة عند المخابز.. على فراغ أسفل بعض الشرفات كتبت آيات قرآنية تطرد الواشى والحاسد.. والصبر.. ترحب برجوع الحاج مع رسوم المحمل النبوى إلى جوار مبروك. حج مبرور وذنب مغفور...

أحقًا يتحدى الذين يتحدونه..؟

من هم هؤلاء..؟ الليليون المقتفون الذين يبغضونه..؟ وهو.. من هو.؟. الذى يكتب كلامًا يشعر المرء بحب الوطن؟ من الساهر الذى يحذر البشر من استفحال الخطر الآتى؟ خطر عدو متغطرس يوسع من رقعة جوفه ليبتلع الجيران قال عنه بعض الناس. إنه خريج كلية الآداب قسم اجتماع.. صدق الناس ولعن مقتفى الأثر.. وقفت لرؤياه.. رؤياه.. أواحد هو. أم مجموعة من البشر.؟. عاشقون للوطن..؟ تائقًا أكون لحد انتزاع الأجوبة - عنه - من أفواه بعض الذين تحدثوا عن شجاعته.. لكن أحدهم لم يتمكن من رؤياه أو تحديد ملامحه. فهم سمعوا من أفواه آخرين تحدثوا عنه معهم ولم يتمكنوا من رؤياه.. فأنت يمكنك رؤية - قبل نومك - مساحة بيتك فارغة. لكن فى الصباح - عندما تلقى بنفسك إلى طاحونة النهار - تجد المساحة قد نقشت باللون الأخضر:

تعجب البعض لاهتمامى الشديد. حتى نفسى الراغبة. تعجبت!! بعض الذين لا يقرءون اتهموه بالجنون. ومن لا يقرأ يدعى الفهم الأرعن.. فقط، الذين يعرفونه المتأكدون من تواجده هم الذين يقتفون أثر نقوشه. هم أنفسهم الموكلون بعملية الشطب. ففى صباحات كثيرة كانوا يتبعون الكتابات الجديدة سورا بعد سور. حائطًا بعد حائط. لكن دائمًا ما يضعون نهاية لمرورهم المستمر، بأن يذهبوا لمنازلهم وفى صدورهم غضب اليائسين..

هو المحرك لرواسب خامدة بالقيعان. الذى يشعل - نافخًا - رماد هامد متناوم برءوس محبى الوطن.. العاشقون بحتمية التواجد والالتصاق القديم بالأرض..

كان الرجل يطوح المبخرة بيده.. دائرًا.. مطلقًا صفيره..

وراء دخانه المتكاثف ذى الرائحة الطيبة.. دخان يرتفع ويتكتل فى الجو المصمت الناشف، يتكاثف كلما نفخ فيه كمن يوارى نفسه بداخله خوفًا من أشكالنا الواقفة تنظر بصمت غريب.. يدور.. يغشى متاجر الورد. أبواب البوتيكات، فنحن نتبعه بخطونا الوئيد الحذر. نفكر فى التحدث إليه ورغبة إيقاف جسمه الزئبقى. لكن يمرق من باب لباب كهارب يحاول الاختباء من أبدان وعيون تربصت به طويلا..

ناشرا بخوره دخاناً طيبًا يبهج القاعدين وراء خزانة النقود والباعة. بصفير منغم وجسد راقص. و.. يتوقف.. يلتفت.. ينظر حيث توقفنا نرقبه.. وهو يتناول قروشًا يرينا إياها بيده المفتوحة

وعيناه المملوءتان بالاستعطاف تتساألان بقلق.. ثم مرق إلى الخارج ونحونا، يرنو بوجل ظاهر.. طوح المبخرة.. دائرًا بعصبية فوق الرصيف، مصفرا بحدة كأنه يرغب فى محونا من ذاكرته. أو إيهامنا بأنه رجل مخبول. فانطلق نحو بحر الشارع بوجله المتزايد..

استلقى على ظهره رافعًا ساقيه، ممسكًا فيما بين فخذيه بخوف، وبيده الأخرى يطوح المبخرة. وبفمه. يطلق الصفير.. مدويًا. حادًا. وهو يضم أسفله كمن يدفع عن نفسه بدوران المبخرة الذى تسارع، خطرًا يحيق به..

دعوته. وكنا ندنوا منه. أزاد من انكماش أسفله، وفاقم من دورة المبخرة وأنا أعيد النداء..

توهمت أنه أطرش.. فأشرت له بيدى. فكف عن تحركه الدءوب حين اقترينا منه. تداخل أكثر. انكمش أكثر.. حاصره القلق..

– ماذا تريدون منى؟!.. أنا لا أسمع.. لا أسمع.. أنتم تعرفون كل شىء.. أنتم رجال المستشفى. أنتم الذين وضعتم الكهرباء فى أذنى.. ماذا تريدون منى...؟

– ... ...

– أعرفكم.. أنتم الذين قمتم بنزع شعر رجولتى. أنتم الذين

وضعتم السلك المكهرب على خصيتى.. أعرفكم....

كان قد نهض بإعياء ووهن. مصفرا بين الأسى الغامر والدهش، منسحبًا على الرصيف الآخر شبه المعتم، مطلقًا صفيره صفيرًا مدويًا.. شديدًا..

كمن يريد إسماع نفسه.. ناشرًا دخانه المتكاثف – مبتعدًا – محاولا الاختباء به..

•

تآكل بيت

ابتعت المصيدة والقطة، وتمهلت فى الطريق، بخطوى الوئيد المتعمد، ريثما يوارى الليل المعتم والساحق أبدان البشر.. عيون المساكن - جيرانى - قعود الدهاليز والدرج، الملفوظون من الغرف المزحومة، والمشبعة جدرانها بقيظ النهار الفائت. خبأت القطة فى المصيدة، ولم يستطع إبطى تخبئة المصيدة، فلففت سلكها السميك - عند اقترابى من مدخل البلوك - بجريدة الصباح.

تجلى الفهم المراوغ فى أعين جيرانى.. ربما أدركوا أننى صرت هاويًا لجمع القطط، واقتناء المصائد..

ضحكت فى نفسى وأنا أراهم يوارون الهمس وابتسامات التهكم، بعد هز الرءوس وتبادل التحايا الودية..

أضحك أحيانا، وأسمعهم من خلال أفواه كتل اللحم البشرى المتكاسل المتلاصق بأرض المدخل يقتلون النهار بانتقاء الحكايات،

مع العدس والأرز، ودس الأصابع فى شعور البنات المهوشة بحثًا عن قمل مؤلم.. يضحكون.. يقولون إننى معتوه - ربما - أحمل للقطط لبنًا وجبنًا، وبأحيان أخرى أحمل لحمًا.. ولفرط إعجابى المدهش لحد الجنون - كما يقولون - أقود لقططى قططًا ذكورًا..

وأننى الآن أحمل صندوقًا خشبيًا ملفوفًا بورق جرائد، أحمله فوق صدرى باعتناء شديد وحذر أرغمنى على الزحف المنهك بحذائى المشطوف نعله فوق الدرج صاعدًا.. إلى مسكنى الذى بالطابق الخامس، والمزوق بابه بآيات قرآنية ملصوقة أسفل حدوة حصان للتبرك وطرد عين الحسد.. تغادرنى آخر التهكمات وأنا أفتح بابى.. أدلف.. وما أحمل سوى المصيدة. وبها القطة المستسلمة بالداخل.. أغلق بابى على ضحكاتهم حتى التجشؤ المفزع. فضوليون.. يحاولون اختراق اللفافة وصدرى ليعرفوا ما فى الصندوق الورقى.. هل هو صندوق خشبى.. أهو بلاستيكى. أو كرتونة معبأة بالفواكه واللحوم والألبان.. أو بيت للقطط.؟

لو عرفوا ما فى هذا الصندوق/ المصيدة/ القطة، لتواروا من الخجل - لو كانوا يخجلون - وفشل ما كانوا يتوقعون. لندموا على سهرهم الليالى يتربصون. ولأدركوا أن الفئران المتوحشة تصول، تكاد تلتهم ما بين أفخاذهم وهم نيام يتنصتون.

بالليل يناوشنى.. فأرى الدءوب.. يرتقى تلافيفى، ملحًا.. يذكرنى بضرورة قتله.. يؤرقنى يلحس أعصابى على مهل.. من أى المداخل يأتى؟ يراودنى. يفسد بالخمش صمت خلوتى التى أعد لها

نفسى وسط أرفف الكتب العتيقة.. كنت ألمحه - سلفًا - كخيال ومضة تمر خلال عينى التى تتوسد كتابًا. فألمح ستارة النافذة تهتز. فأوعز الهزة للهواء ولنفسى المنزعجة، فأركن الكتاب.. وأفتح التلفاز.. تطالعنى أفلام الإثارة والدهشة وأبدان العرى الغربى، أبتلع ريقى. أحول القناة، تطالعنى أفلام الإثارة المقلدة وأبدان العرى العربى. تعترى الحلق غصة.. فأقفل الجهاز. فألمحه يصعد المكتبة التى تجاور التلفاز..

أتحرك.. أبتلع ريقا سيالاً بالتقزز.. يفر، ويتوارى وراء الكنبة.. أقوس ظهرى. أرتكز على ركبتى بتوجسى الحذر. أنظر فى ظلام الأركان وأمد عصاى، أخمش، تنزاح أزواج الأحذية المنهوكة، أحدث ضجيجًا يرجف الروح. يقلقل القلب. لعله يباغتنى قفزًا ويرتطم بوجهى، فأنهض فزعًا. رافعًا بدنى. مبدلاً سيقانى بقفزات متوالية سريعة متوقعًا ارتطامه بقدمى.. وأذنى تلتقط أصوات معارك أفلام الدهشة.. تستحوذنى.. أتوقف مندهشًا..

أقفلت التلفاز. أذكر ذلك جيدًا. فمن فتحه؟ أحد - أكيد - داس على الريموت.

أغلقت كل المنافذ التى تساعده على الخروج.. أسفل باب الشقة.. باب الحمام.. باب المطبخ. وباب النوم.. وجدت الريموت ملقى بجانب المقعد الذى كان يحملنى قبل دقائق - متذكرًا - مع الدهشة - أنه كان مسنودًا بجانب قاعدة الكرسى حين نهضت.. ربما أنا الذى...

مرة أخرى.. التويت بجذعى. أزحت الأحذية بعصاى.. نكشت.. أقفلت التلفاز، ووضعت الريموت فوقه..

وقفت بنبض قلبى وعصاى أحدق.. من أى ثقب بالجدران جاء؟. مساكن الحكومة من الأسمنت المسلح المتين لحد صعوبة اختراقه ولو «بدانة» مدفع.. إلا أننى لمت نفسى حين لمحت نافذة المنور مواربة.. نافذة تستقبل دومًا أعين التلصص البغيض بالنوافذ المنورية المجاورة.. خمنت أنها ثغرة عبوره فأغلقتها.. فعدت شبه مطمئن أفكر فى النوم.. خلعت ثياب الخروج.. ورفعت عن المشجب بيجامتى، واغتسلت وعدت بهدوء يغمرنى.. أجس جيب بنطلونى المعلق والذى به حافظتى.. مكومة كانت ملاءة السرير.. حين رفعتها لأنفضها وأفرشها، قفز هاربًا، تحت انتفاضى المروع وتفززى وحنقى قاذفًا إياه بما تجده يداى إلى جانبى، كتابًا.. طفاية سجائر.. أو.. قفز.. إذًا، ما يزال هنا.. رأيته، بحجم الكف كان.. جئت بالجبن التركى المرشوش بأجود أنواع السم القاتل، علقته بصنارة المصيدة الموضوعة بمنتصف المطبخ..

وقبعت بتحفز المتربص - بعد أن أطفأت الأنوار - أرهف السمع المركز نحو اتجاه المصيدة - ربما يغلق بابها عليه.. أتعبنى طول الترقب.. فتحت التلفاز ليشغلنى ريثما تصطاده المصيدة.. طالعنى فيلم آخر عربى مشابه لأفلام الغرب المبهرة.. معارك رجل أبيض قوى يهيمن على الكون.. و.. رأسى يغمره النعاس.. أغلق التلفاز...

فى الصباح. بعد انهزامى بالنوم القسرى.. أقوم.. أركض إلى المطبخ.. كانت المصيدة خاوية وطعام السم مأكولاً.. والصنارة التى كان يجب إزاحتها بفعل التحريك لغلق الباب ثابتة.. اندهشت، وقلت لنفسى، هو أكل الطعم وسوف يموت يقينا.. ووزعت بأركان البيت جبنًا آخر مسمومًا.. كان التلفاز مفتوحًا.. يبث كلامًا عن الجات.. عن العولمة.. عن.. ولا أدرى متى فتحت التلفاز؟!.

هل تركته مفتوحًا – مساء – ونمت..؟

فكرت أن الفأر – مؤكد – يزداد سمنة.. يسمن على حسابى.. وأنهك أنا، المتجه لشركة الاتصالات صباحًا أتسمع لتداخل أصوات العالم المتضخم بالثراء والانبهار.. بالتأكيد، فأرى هو الآخر يتضخم، فصوت خمشه بأركان الشقة، بدأ ينجلى ويتضح باستفزاز سافر، فكل ما وضعته من طعام مسموم لم يعد له أثر.. هو.. هو.. بحثت عنه، ربما نفق بجانب زاوية حائط.. أدرك أن جيران الحوائط يفكرون بتحركاتى. يستريبون.. يضعون الآذان فوق الجدران لسماع الجلبة وركضى وصخب رأسى وهو يطرد الحنق بأصوات شتائمى المكبوتة ووقع أقدامى والدبيب المتسارع، وإزاحتى للأثاث ليلاً. وكأن جدارى صار ورقة شفاف تفصلنى عنهم. يعرفون تصرفاتى بالدقة والتفصيل.. نظراتهم الموشومة بالتهكم الأسيان المتعجب، تبدلت إلى تطلعات حذره توارى التوجس بالانكماش الخفى والأسى لرجل مختل يحمل فى رأسه هموم العالم الذى تلاقى حول فأر، رجل أصبح يعاشر الجن خلف باب مسكنه.. عند

صعوده للدرج يزحف ولا يصدر صوتًا، كمن يخشى إزعاج الدرج والسياج، يخشى اهتزاز المخبوء برأسه. وقوعه.. أردت يومًا أن أقول لهم إننى أعاشر فأرًا لعينًا يؤرق إياى. وإننى أنفق نصف مرتبى فى سبيل قتله.. ولذلك شريت المصيدة. واقتنيت القطة..

فتحت للقطة كل النوافذ.. باب النوم والنافذة.. باب المطبخ والنافذة، والمنور.. وأطلقت لها حرية الحركة تحت مراقبتى لعلها تتشمم، تجوس بحثًا عن رائحة الفأر.. قفزت بخفة فوق سياج نافذة الشارع.. وقفت لحظات وهى ترمقنى بتوفز الخائف، توقعت هروبها بالقفز، «بسبست» لها بحنو، فلحست شعرها القطيفى وغادرت السياج قفزًا، توارت أسفل السرير.. اشتمت رائحة الفأر. خمنت.. لكن سرعان ما خرجت تتهادى نحوالمطبخ. جابت أركانه المرشوشة بالطعام المسموم. ثم عادت تتبختر وهى تتمسح فى أرجل المقاعد والمشجب ورجل بنطلونى المعلق. وقفزت فوق الكنبة كمن تتفقد أمن المكان ثم توجهت إلى طبق الطعام بركن الصالة وراحت تأكل.. أغلقت النوافذ جيدًا، والأبواب، والصنابير. وعدت لأفتح كل مسامى، ذهنى، وبقيت ساهرًا، يقظًا. أتوسط الصالة أراقب القطة بإصغاء مرهف. أنتظر صدور أى صوت لأطلق أنفاسى المكتومة، مسلطًا عينى بالزوايا، الأركان، أماكن اعتاد ارتيادها ليلاً..القطة تلحس شعرها القطيفى. تتمدد وتلف ذيلها إلى جانب، وتطالعنى بعد نوبة طعام.. ولم تنظر بعد لما أسفل الأشياء.. تطالعنى وأنا أرقب، وهى تنيم رأسها براحة أضجرتنى فأخذت أرقبها هى حتى غلبنى النوم.. المداهم.. صحوت صباحًا مصدومًا لكونى هزمت

بالنوم، وكان يجب أن أهزمه.. ماذا ستفعل القطة.. خطوى المتجه إلى المطبخ. أوقفه الذهول حين رأيت باب المصيدة موصدًا، والطعم مأكولاً. انحنى جذعى المذعور أنظر فى جدار المصيدة الأيسر، منزاحًا..! ومنهوشًا وبه ثغرة مرور..

قابعة كانت القطة إلى جانب باب الخروج تموء بخفوت، وتلحس شعرها وتموء.. وتلحس مؤخرتها. وذيلها الملوى يلتوى، وهى تخمش خشب الباب بمخالبها، وتنظر لوجهى المتعض الناظر لطبق اللبن الفارغ، وطبق الجبن الملحوس جيدًا، فيأكلنى حنقى..

كدت أستجوبها عما فعلته طوال الليل، هل رأت الفأر ليلا.؟.. أخذت لتسرعى وسذاجة غيظى..

قلت لنفسى هى مازالت مستجدة ومستغربة، غدًا أو بعد غد تتعود وتفعل، تطارده وتأكله.. جئت لها بلبن آخر وجبن.. أكيد.. ستأكله أثناء تواجدى فى العمل..

عند خروجى وسحب الباب خلفى، رأيت قطًا متربعًا فوق منحنى السياج العلوى. لم أنظر إليه كثيرًا، لكنه نظر إلىَّ وهو يموء.. كانت مشاعر الانتصار المكبوتة بداخلى تتجلى فوق ملامحى. توسمنى بالجدية المفرطة والصرامة التى تعجب لها قعود الدهاليز الناظرات بالصمت المريب أثناء انطلاقى إلى العمل.. وعودتى، منطلقًا إلى الدرج. وأنا أبحث فى دهليز مسكنى وطرد ما يمكن أن يكون قبل فتحى للباب. فقفز القط من خلف صفيحة القمامة.. فاطمأن قلبى لهروبه واختفائه.. وتوقعت أنه يرقب فأرًا

آخر عن كثب.. فدخلت إلى المسكن مستأنس الشعور بوجود القطة..

كانت واقفة بوسط الصالة متوفزة تنظرنى بعين شبه متحدية نحوى ونحو أسفل الكنبة، فتصلبت منتظرًا، متحفزًا بدورى، وتأكد لدى أنه مختبئ هناك، كنت واقفًا بثيابى وحمولتى المكونة من سمك ومصارين دجاج، وكبد.. وضعت لفافاتى فوق المنضدة بهدوء وحذر وتناولت العصا. رفعتها.. لعله يخرج. يظهر.. والوقت يمر وهو لم يظهر، فأشفقت على نفسى، وعلى القطة وهى تدور حول نفسى، وتدنو من باب المسكن وتلامسه بجسدها مع مواء اللوعة والأسى.. وضعت لها طبق السمك والمصارين. كان ذيلها المعقوف يهتز وهى تموء.. ثم تربعت قدام الباب ولم تبارح مكانها كامرأة أتعبها الشبق الحارق والحنين.. امتعضت وابتلعت لعابى..

كانت المنافذ والثقوب موصدة.. تأكدت.. بدلت ثيابى.. وبتؤدة سرت نحو المطبخ لأعد طعامى. ذيله..! أوقفنى مرتعدًا.. ذيله؟ ذيله ممدد أسفل دولاب الخزين الفارغ.. ذيل مشعر بزغب رمادى وأكثر سمكًا.. أكثر طولاً.. تقززت بدوار خفيف.. توخيت الحذر بدمى الفائر.. كان ذيله بالأمس القريب نحيلاً.. فكرت فى الضغط عليه بقدمى المنتفضة الحافية المنهكة. توجست بفكرة إمكانية دورانه عند الضغط وقضم أحد أصابعى. فعدلت عن الفكرة. على أطرافى، هرولت لألبس حذائى وأعود لأضغط بالحذاء وأهشم الدماغ بالعصا.. لكنى وجدت القطة هناك بجانب الباب تنتظر.

وتنظر. وتهز مؤخرتها وتموء. تنظر حينًا أسفل الكنبة، وحينًا آخر إلى أسفل الباب.. تعجبت لغفلتها المتعمدة وانتظارها بجانب الباب.. قلت لنفسى ستظل مثلك متحفزة..

انتعلت حذائى ذا الرقبة المرتفعة والخاص بأيام المطر ورحت أحث الخطو الوئيد لحد التعب، ويدى المتصلبة بالغضب تقبض على العصا، إلى المطبخ..!!

لم أجد الذيل..

أيقنت أنه غافلنى وانسل إلى أسفل الكنبة، لذلك توفزت القطة، ولذلك لم تبرح مكانها بجانب الباب.. لكن لِمَ لِمْ تنقض عليه وتنهى منه؟! وقد مر من هنا..؟

تسرب لرأسى المتعض يأس مراوغ.. مددت يدى لأغلق زجاج نافذة غرفة نومى على الشيش الخشبى الذى كان موصدًا منذ الصباح، لكنى وجدت أسفل الخشب المعشوق ثقبًا مأكول الحواف ومنزاحًا. كأن كف رجل غليظ أزاحه بعد تهشيمه بآلة حادة تشبه أنيابًا مسنونة.. أزاحنى قلق مناوش إلى الوراء لأتكور فوق فراشى. أتناوم وأرقب الثغرة. لعله الآن يتسلل خفية بالليل ويذهب.. أنهك رأسى التربص، مددت بدنى وعيناى ترقبان الثغرة مرة، وشظايا أطعمة السم مرة.. أقامنى الجوع.. سرت إلى المطبخ وأكلت واقفًا..

والقطة بجانب الباب تموء بشكل أزعجنى، وجعلنى أنظر إليها بعين الشر والوعيد. فلزمت السكون للحظة بعد إطعامى المتسرع، فتحت الباب لأرمى زبالتى اليومية فى الصفيحة المركونة بالدهليز،

لمحت قط الصباح - فى العصر - يتسرب خفية من بين أقدامى، يتبختر، خارجًا من باب مسكنى. كمن أفرغ هموم كيانه وغادر منتشى الروح.. مندهشًا راقبته، وهو يصعد فوق السياج ويتربع كأنه ينتظر مخلفات صفيحتى.. أوصدت الباب بذهن منشغل.. كيف تسنى له الدخول.؟ أيمكن أن يكون قد قتل الفأر؟ راودنى شعور فرح.. أكيد تسرب عصرًا ودخل أثناء فتحى للباب.. لكنى رأيت - منذ قليل - الذيل، ولم أر دمًا.. هل قتله وأكله منذ دقائق؟

بحثت - والقطة تستلقى بارتخاء منتش فوق السجادة - هل القط فعل..!؟ لم أجد دمًا أو بقايا من فروة لأرمى بها قبل التعفن.. لم يوجد بعد ما يدل على موته..

قفزت القطة فوق سريرى. تكومت طلبًا للدفء والنعاس إذًا. لقد فعل القط. وذلك جعلها منهكة..!

أتيت لها بالطعام موعزًا تكاسلها البغيض والتقاعس لطول قربها من الفأر وترقبها له مثلى. بالأقل ستفعل هى ما لم يفعله القط. القط..؟ ذلك الذى غافلنى وتسرب داخلاً، وغافلنى عند الخروج.. لكن. غدًا تكبر وتقاومه.. أعددت أخشابًا، وسددت فتحة النافذة.. فلأحاصره.. سددت كل المنافذ التى يمكن أن يمر منها.. نزعت فيشة التليفون.. فصلت إريال التلفاز بالقطع.. لكن الإرسال لم ينقطع. والجهاز يبث إعلانات الفخامة بإصرارعنيد.. أذكر أننى لم أفتح الجهاز.! أوعزت مسألة فتحه لاختفاء الريموت ربما. بمعرفتى وسخطى ونسيانى.. اغتظت.. فأسرعت أغلق النوافذ

بخشب متعارض.. وقعدت أنظر بغضب إلى القطة، وقد لمحت انتفاخ بطنها قليلا. كانت كمرأة حامل.. تناهت لسمعى المرهف المتصت همهمات ودمدمات التهكم التى تشع بها الجدران، فتأكد لدى أنهم يصغون بتشف بعد صخب الدق والهبد.. ويتهامسون – يقينا – عن اختلال ذهنى.. سحبت كل ما هو ملتصق بالجدران من أثاث نحو منتصف الصالة، فانقلب مشجبى أرضًا وتناثرت ثياب خروجى، مع حرصى الشديد على جهاز التلفاز أثناء سحبه. جئت بكل الأوانى.. كل الملاعق والأطباق.. نزعت براويز الحوائط ورفعت فرش السرير، عريته ليكون مكشوفًا.. وضربت الكنبة بعصاى لعله يسقط لو كان مختبئًا.. تركت كل شىء عاريًا ومكشوفًا وواضحًا.. والقطة تنظر نحوى باسترخاء بغيض أثارنى.. يبدو أنها تواطأت مع الفأر.. يتهامسون من وراء الجدران، ولم يدرك أحدهم بعد الشكل الذى أصبحت عليه القطة.. لقد سئمت وانبعجت. وإنها توشك على الدخول فى مرحلة بداية استلهام القوة الغاشمة للانقضاض الساحق على الفأر. ذلك إن كان لا يزال هنا.. عندى، فأنا لم أعد ألمحه، أو أسمع له صوتًا، أو خربشة حيال خربشاتى وصخب تحريك حاجياتى فضلاً عن غمغمات ودمدمات الحوائط.. هل أكلت القطة الفأر حتى انبعج جوفها هكذا؟؟

هل خاف هو ولاذ بالفرار..؟

أم تراه قد كبر وازداد قوة باطشة..؟

ربما لم يعد طعامى يروقه فذهب.؟

شرائح البسطرمة.. أصابع السجق، وصفحات الجرائد والسم المرشوش.. كل شيء يبقى كما هو - بعد رجوعى من العمل عصرًا - متناثرًا ومتعفنًا. أوقن أنه ذهب بلا رجعة - فألملم سموم الأركان. أكورها. وبالخطو الوئيد. والحذر. أفتح الباب لأرمى الزبالة، أراه نفس القط المرقط المكابر يمارس وجوده المتحدى المعاند. يرى توقفى المبهور بالدهشة.. ألمحه خارجًا من بين أقدامى يتسلل.. هل يدخل صباحًا حين أخرج؟ ويخرج عصرًا حين أدخل؟ ويظل بالداخل مع القطة؟! أطمئن نفسى.. عال.. اثنان على واحد.. عال.. بعد ذلك، رأيته يرقبنى، وينتظر خروجى فوق الدرج.. فأبتسم مشجعًا إياه أن يتفضل بالدخول. إلا أنه يولينى ظهره المتكبر، وبخطو وئيد واثق يصعد إلى الطابق الأعلى هازًا ذيله برفض الساخط، كالمصر على الدخول والخروج سرًا، وفى غفلة منى، ورغم أنفى.. فأبصق عليه بمقت، ونظرات الجيران المتعجبة تنغرس فى جدران رأسى.. إذًا هو يغافلنى.. يخادعنى.؟!

وضعته هو الآخر فى رأسى.. جال بتلافيفى.. عزمت على عدم تسربه عند فتحى للباب. حاذرت. عند غلقه بضجرى.. لكنه تربصنى بدخول الليل، بصدد عينى كان واقفًا أمام الباب بتحديه البغيض. وأنا خلف العين السحرية أراه قاعدًا فوق السياج فخمًا ضخمًا، بثبات نظر وشوارب كمن يضمر لى الشر، يتعمد الوقوف المتغطرس قبالتى.. متكورًا، ومستطيلاً. ويتحرك مع اتجاهات عينى.. والمتربع فى تجاويفى. يطل من عينى. أدعك عينى وأعود أتوسط أشيائى المتناثرة بوسط الصالة، مجاورًا لأحذيتى وألوان

ثيابى وتفرق الأوانى، كل شىء واضح وجلى أمامى لا شىء متوار عن عينى.. القطة مبسوطة اليدين ومرتكزة على جانب، ملقى أمامها البطن الذى ازداد انبعاجًا.. تموء باستعطاف امرأة تنشد الخروج لملاقاة عشيقها المنتظر بالخارج.. هو نافخ هذا الجوف؟! لم تسمن إذًا من أجل عيونى، وجسد الفأر.. طعامى فعل عكس ما انتويت..؟ إنها حامل، والفأر لا يزال موجودًا.

تفاقم غيظى، وأنا أسمع لصوت تحريك بطىء، وخمش متقطع بأسفل المشجب الذى إلى جانبى والمنضدة.. كان بنطلونى متكورًا فوق الأرض يعلو ويهبط ويتحرك منسحبًا قليلاً، رويدا، إلى أسفل الكنبة.. والقطة لم تزل تموء بوهن.. نهضت بتوجسى وحذرى.. ركلت القطة بقدم فارتطمت بالأوانى، وبقدمى الأخرى هبطت ضاغطًا على البنطلون المتحرك.. ورفعته عن الأرض.. كان نصفه الأعلى مثقوبًا.. وممزق الجيوب. تنبهت على الفور - مع توقع بالأذى المروع - ضياع بطاقتى وبعض أوراق مفردات المرتب، وطلب إجازة مدموغ.. و.. هرولت مفزوعًا أفتش فيه، حين تساقط مزق أوراق راحت تتزلق فوق القماش فيما بين الأرجل..

تقززت مشتعل الرأس بالسخط. وألقيت بنطلونى.. هو لا يزال هنا؟! رفعت عصاى، أسرعت نحو المطبخ.. أوقفنى ذيله الذى تضخم وبدا كحبل سميك متضافر، ملتو حول أرجل وابور«الجاز» المركون. ذيله هنا وبقية جسمه أسفل البوتاجاز متوار.. رفعت قدمى بالحذاء «الميرى» الثقيل.. حذاء الذكرى الخالدة لأيام

تجنيـدى فى حـرب الاسـتنزاف.. هل أدوس..؟ أفـاجئ الذيل بالضغط؟.. توقفت مفكرًا فى إمكانية رفع الذيل بالوابور وقذفه فى وجهى.. أنزلت القدم ولم أفعل.. تنصت لصوت خربشة وتكسير بأسفل. فتوقفت بتوجسى بلا حركة. وقد غمرنى شعور غريب بالدفء من رقبة حذائى وهى تعلو ركبتى..!! مع طول مباغت أصاب عصاى.. فنظرت لكفى الصغيرة.. هى كانت صغيرة؟ حركت عصاى لعل يصدر عنه صوت يوحى بالخوف ويفر.. لكنه هز ذيله فاهتز الوابور، وارتعب قلبى بالضجر فلأهرب.. حين التف بدنى لترك المطبخ، ضايقنى رعبى فتعمدت الوقوف، فرفع ذيله عن أرجل الوابور وفرقع به مصدرًا صوتًا مرعبًا كصوت كرباج..

تشممت رائحة عفن جحور الفئران تتعاظم بجو البيت، تغزونى. رتعدت.. تقوقعت.. ولأول مرة ألاحظ اتساع مسكنى وتباعد السقف، وارتفاع السرير. أنا المتعب. المخنوق بروائح النتن أهرع، أحاول كسر الخشب المسمر فوق نافذة المطبخ لتجديد ركود العفن بالهواء.. لكن ذيله المطرقع أعادنى مكبوسًا بالرعب، هو لا يزال متواريًا تحت البوتاجاز.. يطحن شيئًا بأسنانه، طحنًا يقرقع فى الصمت الكابس على أنفاسى.. يأكل بدون خوف. بلحظة انغمار رأسى برغبة ملحة لرؤية بقية جسمه..

هل تضخم ليكون بدنه مساويًا لذيله؟..

كان باب الثلاجة مفتوحًا. اندهشت لعدم رؤيتى له قبلاً مفتوحًا كمدخل بيت مهجور. تلاشت كل أطعمتى المعدة لمقاومة جوعى طوال فترة انقطاعى عن العمل..

علب التونة والسالمون، ونصف قالب لانشون وبعض من ثمرات الخيار والطماطم، والجوافة والبرتقال.. كل شىء تناثر فى الزوايا.. صفيح العلب مأكول الأطراف وفارغ، وملقى بعشوائية مقصودة ومنفرة..

ركضت إلى الصالة، أبحث عن آلة حادة وثقيلة يمكن أن تقتله، تهشم رأسه.. بهرولة رأس غائب وغاضب، متهور. رفعت مكتبتى الأرضية الصغيرة. لأضغط بها.. لكن خشبها كان متحللاً.. تساقطت على شكل نشارة: ولتهوى أوراق الكتب التراثية وتتحول إلى فتافيت تتطاير من زفير أنفاسى المذعورة.. انصرف ذهنى المروع الملتاع لرفوف أخرى تحمل كتبًا أحتفظ بها منذ أمد بعيد من سنوات عمرى.. أسحب واحدًا.. ممزقًا كان هشًا، ورق تطاير. تلاصق بجلدى، راح يغطينى. نتفًا تدخل أنفى، أذنى وعينى.. تخنقنى فأسعل.. أتوق لشهيق، لزفير.. أختنق.. هرعت لأنزع خشب النافذة المتقاطع والمدقوق لتجديد هواء أتنفسه.. فى لحظة ارتفاع يدى واقترابى حجب ضوء لمبة الصالة خيال غطائى من الوراء. أرعبنى وكتم سعالى: التفت كان جالسًا بتحفز فوق بنطلونى وسط أشيائى المبعثرة يقضم فى عصاى، واضعًا تحت كفه ذات المخالب بطاقتى تأهبًا لأكلها.. وجهه الكريه ممدد بشدق متشع بين شوارب من سلك صلب.. رمادى شعره الذى يشبه بطانية عسكرية منحولة الوبر.. أذناه الكبيرتان تشبهان جناحى خفاش أسطورى، وقد ألقى بذيله الطويل فوق الأوانى والفرش. ومن خلفه التلفاز مفتوحًا يبث المعارك الفيلمية المبهرة.. وكان يقضم بطاقتى، بروحى

وحبس أنفاسى.. بحذر الرعب تحركت إلى جانب الحائط، خلف ظهر مسند الكنبة.. تعثرت فى حذاء مركون..! تحرك هو باتجاهى.. تخطيت قاعدة المشجب والباب يتناءى عنى.. تقوقعت أكثر متوقعًا قضمى بعد البطاقة.. حذرى المرتعد أشعره بالزهو أثناء تسللى جوار ذيله: أشرئب لأبلغ بيدى مقبض الباب.. كان عاليًا. طويل حلقه.. انطلقت أعدو.. ونشارة الأوراق أحس بها فى بلعومى. منخارى.. كما أشعر بخيوط سميكة لبيوت عناكب تلفنى أحاول فك الخيوط عنى أثناء ركضى فوق الدرج.. وأعين الجيران تلمحنى من وراء الأبواب المواربة. وأنا أصيح بصوت خلته فحيحًا.. الفأر يكبر بأعلى..

ينظرون.. يتهكمون،.. أركض.. يتطلعون إلى أعلى بذعر وذهول. وهم يرون نتفًا من ورق يتطاير هابطًا إلى بئر السلم وأنا أسمع صوت اصطفاق الأبواب وأنا أواصل الركض لأبلغ الشارع..

قضبان الروح

هو العين والبصر.. عكاز النهار، ومؤنس الليل.. معلق بالتلافيف والأصابع.. وديعة دائمًا بيده..

مستسلمة باطمئنان جميل..

مبصر هو وصغير.. يلهو هناك بين أبدان البشر..

يذهب ويجىء.. يجوس الممر وسيقان الواقفين.. ركاب قطار الضواحى البطىء.. ينظر إليها.. إلى جوار الباب قاعدة صامتة ترهق السمع بقلق.. لابد للأطفال أن يمزحوا.. يتباعد صوته، يكاد يتلاشى مع الصخب المتوتر بجو القطار يلعب ويعود، على أطراف الأصابع. يدنو من الأذن. يغزو الدماغ، ينفذ إلى القلب لتتبسط أساريره..

يتناءى صوته.. تدرك أنه هرول إلى العربة الأخرى حيث أصوات الأطفال المتجولين بالأمشاط وعلب الكبريت والبسكويت. أصدقاء

العام الفائت. تعارفوا حين كان مثلهم يسرح بإبر الخياطة قبل موت أبيه الأعمى. قبل أن يكون عينا لأمه ومرشدها.

كان يحس - وأقرانه يتناثرون بالعربات البعيدة - بشعاع استشعارها السمعى الرهيف يسعى إليه، يحيط به.. يغمره فلا يتباعد.. ينفلت من بين تلاحم الركاب، ويتقارب.. ببطء الحذر. يدنو من البدن المقرفص بجانب الباب المفتوح. تتبسط قسمات الوجه المنصت بإصغاء مرهق، إلى انتباه مصحوب بابتسامة حنو المأخوذة بتوقع حدوث زغدة مباغتة أو صرخة فى الأذن تنبه الدماغ بأنه واقف بالجوار فى ظل صمت مغزول لحظة التلاقى الحنون.. تقول.

- أنت جيت يا حسن..

يقرفص قدامها.. تشعر بريح أنفاسه تتردد بانتشاء المدرك لفراسة أنف بشم رائحته.. يبتهج.. ويعدو..

يشدهما لبعضهما خيط مجهول.. يتجاذبان أطرافه مهما تباعدت بهما المسافات..

والركاب المجهدون الذين استحلب قواهم النهار المنصرم.. يتناقصون. بتجشوئهم القطار فى المحطات الفائتة. ويشفط آخرين من فوق الأرصفة. يتصارعون. يتلاصقون.

ركاب آخر الخط. مألوفو الوجوه. حاملو القطار على الكواهل.. يلمحونها تقريبًا فى كل يوم.. لكن لم يكونوا يعرفون من أية محطة

تركب العمياء وطفلها المبصر، ولا فى أية محطة تنزل متواجدة هى مثل كل الموجودات التى تصادف أعينهم يوميًا أثناء النهار، بالعربة الأولى، أو الثانية. أو العربات الأخرى. كأنهما لا يغادران القطار أبدًا.. ثوبها القديم باهت السواد فضفاض فوق جسدها المقرفص كمن يتأهب للوثب. سكون قسمات الوجه القانع الملفوف بطرحة بيضاء كالحة حتى الاصفرار.. موجهة الأذن نحو الداخل تتحسس قروشًا يسقطها البعض فى حجرها... أذن كجهاز إرسال واستقبال يبث إشعاعًا لا يكل.. يتواتر.. يراوغ الصخب وينفذ حيث يتواجد اللاهى.. يكهربه حبل المودة المجهول.. فينصت أحيانًا. فربما تدعوه، فيهرع إلى جوارها.. تمسك رأسه المتلهف للعودة إلى اللعب.

- اقعد يا حسن.. كفاك لعب يا حسن.

طوى الولد شعور الضجر.. آن له وقت الجلوس القسرى والإجابات المبتورة.. تلقى أسئلة الرتابة.. تمد الأذن كوعاء يتوجب عليه ملؤه.

- طيب.. قعدنا..

تمد إصبعين، وبغيظ اتسم بالعتاب. تقرص فخذه الرفيع.

- عيب يا حسن.

يتأوه شبه باك. تقول.

- النهار طويل قدامك.

- النهار قرب يروح يامه.

- هى الساعة كام دالوقت.؟

- الشمس قربت من البحر..

- يعنى لسه بدرى.؟.. قل لى شايف إيه..؟

- اللى كل يوم بشوفه.

- شايف إيه يعنى..؟

- حاجات عادية..

- يا واد اقعد.. نورنى..

- أنورك بإيه..؟

- كل ما تقول أتنور.. أعرف..

- إيه الفايدة؟ أنا أهو مفتح ولا أعرف حاجة.

- يا عفريت.

رويدًا، ينسل الزهق من صوته،.

- صلحوا المحطات، وبنوا أسوار حوالين القضبان..

- يا سلام.. والله كويس.. أسوار عالية يا حسن.؟

نص نص.. ودهنوا القطارات.. جددوها.

- والقطار اللى إحنا فيه، غيروه..؟

- يتغير إزاى واحنا قاعدين جواه..!؟

- أقصد دهنوه من بره.. جددوه..؟

- أهو.. زى ما هو..

- والبيوت اللى كانوا بيبنوها ورا الجدران؟

- البيوت كبرت خالص.. كبرت قوى يامه..

كان الاندهاش قد أزاح الضجر من الصوت فاستكان الجسد الصغير إلى الجوار، يقول:

- هى الأطباق دى ليه يامه.؟

- أطباق إيه...؟

- أطباق فوق السطوح. كبيرة ومدورة وفاضية.. ليه.

- هو أنا بشوف يا حسن. لو بشوف أحتاج لعيل عبيط زيك.

- وكلها متوجهة الناحية دى.

وقد أشار بذراعه نحو الوراء... قالت.

ناحية إيه؟

- ناحية الملاحة كده.

- تقصد ناحية الغرب.

- أهى ناحية وخلاص.

- كلها يا حسن..؟

- كلها يامه..

- وفاضية..؟

- خالص..

عاوده الضجر.. تململ.. فرصة هى «للزوغان». قال.

- أروح اسأل وآجى أقول لك.

- بتتريق علىّ يا حسن.. طيب تعال..

امتدت يدها لتمسك به.. إلا أنه وثب قائمًا هازًا وسطه، وهو يضحك.

- لو شاطره امسكينى..

فردت ذراعها تريد إمساكه. لكن ضربات يدها للهواء كانت عشوائية.

أحس بالضيق فاقترب لتمسكه. راوغها. ضحك وابتعد ثم اقترب.. وتناءى.. أحست بأنه يبعد، رويدًا.. قالت.

- بلاش تروح بعيد يا حسن..

كان رده يجىء من بعيد..

- متخافيش.. أنا هنا.. أهو..

يتباعد الصوت رويدًا.. لزمت الصمت والإنصات. لم تستطع الإمساك به يومًا ليظل بالجوار.. يحكى ما يراه وما تحب أن تسمعه أثناء الليل أو النهار. يتقلقل بدنه، يتحرك بدأب يتوق لمعاودة اللهو.. ومن النظر، تنتابه الدهشة، يستقر قائلا.

- ياه يامه الرصيف مليان طشوط..

تهدئ من دهشته التى لم ينجح فى نقلها إلى رأسها. تقول.

- دول الفلاحين يا حسن جايين من الأرياف بالتموين.

- التموين..؟

- الجبن والخضار بيبيعوه عندنا فى المدينة.

- آه.. عرفتى منين أنهم فلاحين؟

- من صوتهم وريحتهم يا عبيط.

حين تتكاثر أسئلته، يغزوها السكون. يدرك بأنها قد اكتفت، فوجهها انبسطت أساريره تهدلت شفتها السفلى وتثاقل رأسها وترنم لتبدأ الدخول فى نوبة غفوة..

ينسل هو بحذر. يسمع صوتها الكسول آت من عمق الغفوة.

- لا تبعد يا حسن.

- طيب.. طيب..

وغفت، كأن ليس بالدنيا ضجيج ولا بشر..

ذاب هناك يبحث عن أقرانه أطفال البيع الذين تلاشوا وسط الزحام فى لحظة الغفوة..

غفوة داهمت الدماغ فارتكن على ظهر الكرسى.. غفوة امتدت لعدة دقائق أو ثوان.. أيقظها منها صوت ارتطام بجدار القلب فانقبض.. صوت مبهم سرعان ما سكن، أعقبه صرخة واحدة،

أسيانة ومفزعة، ومضت بالتلافيف المرتخية بالرأس المركون، فاعتدل متجمد الملامح مصلوبًا فوق الرقبة، منصتًا.

خرج صوتها من خوف متوتر، وخافت.

- ولد يا حسن..

صوت لم يخرج مرة أو يتزحزح عن محيط مكانها، واهنا مخذولاً، يشوبه الخجل القلق.

يمكن للقريبين من محيطها أن يسمعوه.. ركاب انتووا النزول فى المحطة القادمة فقد أوشك القطار على التوقف بجانب الرصيف.. هم لم يسمعوه.. ولو سمعوه لن يدركوه، فصخب النزول والصعود وقطارات الطوالى (بسيدى جابر) يتعالى ويتآكل صوتها المدفون فى بئر التوتر. يمحوه..

حواسها فى الأذن تجمعت، تنصت وتقول.

- يا حسن.. يا حسن.. ياوله يا حسن..

فى مكان ما هو.. لم يصله صوتها المنخفض..

لو كان قريبًا لبلغ الصوت أذنه وجاء مهرولاً.. ولو كان بعيدًا، لسمع الصوت بحواسه المغمورة بإشعاعها الذى يتبعه، ولجأ فورًا يحمله التذمر القلق. بحس يجىء ويخترق مدركًا أن القطار قد بلغ منتهى قضبانه، فيأخذ يدها فى كفه يتطامن القلب.. تخضع الكف.. يرشدها إلى الطريق.

لكن نداءها الخفيض كان خجلانًا.. يتحسس طريقة بذعر مطموس يسرى خلال العربة.. يتفرق على أعضاء الجسد الثابت.. عيناها متوقفتان باتجاه الممر بقوة تركيز سمعى.. قاومت صوت القطار الضارى الذى توقف، والبشر الضجر، وأصوات البشاعة الفظة الصادرة عن كل شىء. الباعة ونعيق قطارات الطوالى المستمرة فى حمل البشر والسفر.

لكن الصرخة لم تعد.. لم تتكرر.. انطلقت لبرهة عابرة بزمن الغفوة.. عابرة لحد لم يلحظها معها الكثيرون.. صرخة استبدت بالدماغ لتعرقل فيه الحركة. ألزمتها صمتًا مباغتًا وثقيلاً.. أعادت النداء بصوت خرج عن الرأس..

- واد يا حسن.. حسن..

والصخب يتعالى.. يتفاقم.. صخب يومى لا ينبئ عن وقوع شىء غير مألوف.. الركاب الذين بدءوا يتحايلون على الصبر، ويتفوهون بكلام عن التأخر والمرتبات. الغلاء والزوجات. الزوغان واللصوص. معارك البعض مع المحصلين السادرين فى قطع التذاكر على الرغم من توقف القطار لعطل بالخط، لم يعرفوا بعد سببه.. ونداؤها بدأ يملأ محيط مكانها.

- يا حسن.. يا حسن.. يا حس..ن.

ربما بعربة أخرى هو.. يلهو.. كثيرة العربات الخلفية..

- حسن..

يتوجب النهوض وتلمس الطريق لتبحث عنه. تحريك الجسد المحطوط بقوة الذعر.

رفعت الرأس نحو مصدر الأصوات المتشابكة بتكاثر عنيد مستعينة بكل الحواس تلك الصرخة الوامضة التى اغتيلت كما اغتال الهمد الوحشى أعضاء البدن.. نهضت ممددة الذراعين. تتحسس أبدان الركاب وأعمدة الممر، وظهور الكراسى.

ارتاح القطار على القضبان.

يتوقف كثيرًا هو منذ أحدثت الهيئة التجديدات بالأرصفة والأسوار والقضبان وإشارات المرور.. يتوقف ويسير ويبطئ أنها تعرف ذلك جيدًا .. حسن يحكى لها كل شىء...

لكن التوقف الآن غريب هيأ النفس لقبول الارتياب.. سألت أحد الذين صادفوا اصطدام جسدها المهرول.

- هو حصل إيه يا خويا..؟..

- أنا عارف.. انزلى شوفى.. أهى عيشة تزهق.. سمعت صوت التذمر ينخر الرأس.. نعم.. هناك أمر قد حدث ولم يهتم به أحد.. لأن أحدًا هنا لا يهمه غير سرعة وسلامة وصوله لمحطة نزوله.

انقباض القلب يدفع البدن على التقدم نحو العربة الثانية..

- ولد يا حسن..

رويدا يعلو صوت النداء..

فالعربة الثالثة.

- ماحدش شاف حسن..؟.. يا حسن..

تجس أبدانًا متناهية فى صمتها العجيب.

كالنائمين كانوا.. حسن لم يجب على النداءات..

والصوت يعلو صادرا عن القلب..

لم يسمع لتردد الصوت المشجوب على حبال الذعر الملتفة حول العنق.

- يا حس ااا ن..

مهرولة. مرتكزة الرأس على أصوات اللغط الدائر بين الركاب فى محاولة لسماع شىء يهدئ من الروع..

- حسن.. يابنى.. رد.. يا حس ااا ن..

نداء أشبه بالصراخ. العواء.. منطلق ليملأ كل الفراغات حتى تلك التى بالنفوس، بالرءوس..

خيل إليها أن صوتها المنادى الأسيان سوف يشحن الجو كله.. يصعد لعنان السماء. يطغى على صوت الصخب والبشر. فيبحث معها الجميع عن حسن..

.. أيكون ذهب لدورة المياه..؟

لكن حسن دومًا يرسل بوله عبر الباب بجوارها..

أفعل وتبول عبر باب آخر..؟

أذهب لشراء ساندوتش.؟

هو مفلس، وطعامه مخبوء دائما معها..

العم الذى ذهبا إليه فى العصافرة لم يعد يمنحهما. مليمًا بائع الخضر والفواكه قطع عنهما المعونة الشهرية..

وها هما يتجولان بالقطار منذ مات زوجها الأعمى..

من قراءة القرآن فى المقابر، كان يعولهما.. ثم انقطع لمرضه، ومشاق المشوار من كشك الجبل إلى مقابر عامود السوارى..

القطار يقطع المسافة بين الإسكندرية والعصافرة - الجلوس على أرض الممر فى صمت الخجل، جعل المحصلين يتركونها وطفلها.. لكن ذات يوم وجدت فى حجرها قروشًا، ألقتها الأيدى المحسنة.. قروشًا أخذت نصفها أخت زوجها التى تقطن الكشك المجاور، فهى تنام وابنها وعليها أن تدفع ثمن الكشك والإقامة..

- حس ااا ن.. يا بنى..

أمسك بذراعها أحد الركاب ليجتاز بها الممر الفاصل بين الباب والرصيف.. قالت:

- ما شفتش حسن ياخويا..؟

حسن مين يا ست..؟

- حسن ابنى.. كان هنا دلوقت..

هبط بها إلى الرصيف وهو يقول بلهوجة متعجلاً..

- شكله إيه حسن ده ياست..؟

- ولد.. عيل صغير..

- العيال كتير ياست..

- ده كان معايا من شوية..

- لابس إيه حسن ابنك ده..؟

- لابس إيه..؟ لابس هدومه.. بيجامة..

- شكلها إيه البيجامة دى..؟

بالدهشة المريبة والغرابة، استخلصت ذراعها من يده.. لزمت الصمت.. لعل الرجل لم يلحظ عماها.. لكنه تطوع وأنزلها.. سألت..

بيجامة.. هو فيه عيال كتير لابسين بيجامات..؟

لم يجب.. أيقنت أنه انصرف لحاله.. تساءلت..

- هو الولد راح فين.. يا ربى.. يا حس ااا ن.. يا بنى. كان هناك بالطرف القصى من الرصيف رجال يحدوهم الصمت والفزع، ينظرون لأسفل. مجبرون على السكوت. منظر أليم عرقل الألسنة ولملم أبدانهم ليكوّنوا صفا فوق حافة الرصيف. يقابلهم صف آخر بطرف الرصيف المقابل.. صفان يفصل بينهما قضبان لامعة تناثر على فلنكاتها قطع من لحم مهروس.. مايزال الدم الساخن ينبثق منه..

كانت العجلات قد هرست ومرت ليتساوى الحديد بالحديد، مخلفًا مؤخرته بعيداً عن أشلاء الجثة بحيث يتسنى لرجال الإسعاف جمعها.. لم يفكر أحد من يكون الولد.. ولم يفكر أحد فى غير أطفاله القابعين - يقينًا - بأحضان أمهاتهم..

ربما تساءلوا فى لحظة الهرس المباغتة، لحظة وقوع الحادث وانطلاق الصرخة.. لحظة لم تدركها المرأة الهائمة أشيحت وجوه النساء اللواتى سمعن ورأين نحو الجانب الآخر فى تقزز أرعد القلوب وأطبق عليهن صمت..

وضعن الأيدى على العيون والأفواه فى محاولة لمحو النظر.

- يا حسن.. يا واد يا حس ااا ن..

فوق الرصيف كانت، تتحسس الفراغ المخنوق بالقيظ الجاثم فوق النهار.. بلهف تصغى لعودة الصخب.. تهرول بعشوائية..

- يا حسن.. يا حسن.. حسن..

نداء تعالى فوق الصخب الآخذ فى الذوبان..

- يا حس ااا م..

فيه الروع والرعب.. شعور ترسب بقاع القلب ينذر بفقد الولد.. أفقدها التحكم فى انتظام الخطو المهرول..

اصطدمت بأبدان مهرولة. ولم تبال.. توقفت.. تصغى..

لعل صوتا يأتى من بعيد يطمئن القلب..

- حسن..

سادرون هم فى الهرولة والسعى.. تصغى.. لعل صوت إسعاف يشق الصمت الذى بدأ يتناسل رويدًا. رويدًا بعد رحيل القطارات، وخلو المحطة إلا من بعض الباعة والكناسين، وبعض ركاب لم يدركوا قطارهم ليسود الصمت من جديد..

- يا حس اا ن..

نداء ردده الصمت المخبوء فى النفق الأرضى..

يرجع صداه صالات التذاكر المصمتة ودورة المياه.. ونهر القضبان، حتى الجدران..

- يا حسن.. يا حسن..

صراخ.. صراخ اندهش له مفتشو الأبواب..

وهى تجوب الرصيف، بخطو وئيد.. لقد مر الوقت..

لعل الولد ركب قطار الطوالى. وسوف يعود..

لكن قطارهما كان يمشى حين فقد..

- يا حس ااا ن.. حس ااا ن..

فجر المتاهة

غادرت العربة الأجرة. أحمل حقيبتى، ورأسى. مغبش، وثقيل. يناضل سطوات النوم المهاجم.

لا يزال الليل يتوسد الميدان، ينطرح فوق الصمت المتكدس بالزوايا، يستبيح الأعين الساهرة.. حوانيت الفاكهة ودكاكين الأكل.. المقاهى مغفورة الأبواب ومقاعدها الفارغة المرصوصة ترقب الأسفلت المندى وخطو بعض المارة، والفجر المتوارى وراء البيوت العالية.. عيون تراخت أبدانها فوق الكراسى وأسفل المصابيح فوق أعمدة توقفت كحرس يقظان للميدان الفسيح وعربات الأجرة.. بائتة كانت بسائقيها فى الممنوع وعلى قضبان الترام.

صمت راكب يزيد الرأس ثقلاً، ويشعر المرء بالتفرد..

وحدى.. أجرجر قدمى. منتشيًا بالرحيل عبر تمسك الليل بالبقاء وقدوم الفجر.. صالة التذاكر تحتوينى.

عـيـال الليل والتـسـول. هنا. إلى جـوار الحـوائط.. نـائمـون.. ناشـرون الأذرع والسيقان.. لو كان الفصل شتاء لانكمشوا.. ونساء الزمن المكدود تناثرن بأركـان أخـرى منكمـشـات بجـانب قـفف وأقـفـاص، يقـاومن أثقـال الرءوس. رجـال القـمـصـان والعـمـائم والجلاليب، تربعوا أسفل شباك التذاكر الموصد. تعلوه عبارة درجة ثالثة لجميع الجهات. أعرف جهتى. وحدى. ولا أحد غيرى يعرف.

أنا الثـالث بالطابور.. يسندنى حـاجـز حـديدى، أرتاح إليـه. وأتثـاءب.. أغـمض عـينى.. ولا أدرى غـيـر ظلام رائق من شـوائب العالم.. قليل وينفرج الشباك. ويظهر الموظف وآخذ تذكرتى. وأتابع خطوى إلى الرصيف وأركب، أغفو حتى يغادر القطار المدينة.

(- ممكن تقطع لى معك تذكرة؟).

اختلجت أجـفـانى.. خـارج الطابور هـو. وأنا المزنوق بين طابور تطاول.. الوحـيد الذى انتـقـانى.. اختـارنـى.. تجاهلت تهـدج صوته شبـه المتضـرع. رفعت جفنى.. قبالتى يده المعروقة. تختلج. تحمل الثمن. نقود ورقية ومعدنية.. تمردت يدى بصمتى المتعض.. أعاد صوت المتهدج المتوسل..

(- ممكن تذكرة معك، لو تكرمت؟)

وغبش الفجر يحشو تلافيفى.. يراوغنى.. يلهب عينى.. امتدت يدى بسأم..

(- إلى أين؟)

أودع النقود فى راحتى قبل أن ينطق، وكان يتلفت حوله بلهف. موليا لى جانبه الأيسر - والغيظ يعترينى - فالأيمن.. سلبنى ارتخاء المشاعر. ضاق نفورى. تجاهلته.. قال.

(- أذاهب أنت إلى القاهرة؟)

تهكم غيظى، وهو يبتعد..

(- أعتقد.)

(- أنا أيضا ذاهب إلى القاهرة)

بلحظة دفعة مفاجئة بظهرى اختفى.. وباختفائه تيقظت مشاعرى، فرفعت ذراعى بثمن التذاكر، لأبرهن له - لو كان يرانى - بأننى هنا موجود.

لمت نفسى لرفعى الذراع ولشعورى باليقظة له..

رجلان أمامى وأواجه الشباك.. بالخلف أكثر من مائة رجل يشملهم ضجر السهر والوقوف، وجهامة موظف بدين وراء الزجاج. مستاء. كسول. التهب رأسى لشعور الضآلة المداهم.. فكرت فى إعادة الثمن للرجل الذى ومض بذهنى ليحتوينى.. استخدمنى. كيف؟

أدركتنى أعين رجال الطابور.. توقعت صوتًا غاضبًا يعترضنى.. لكن.. يتكاثر الزحام عند كل الشبابيك.. تنبهت. لم أر للرجل وجهًا. ملامح.. إن كان بشارب أو بدون. أصلع الرأس أو بشعر.. لعلنى أبحث عن وجهه!.

لابد أنه يرانى الآن، وقد سجلنى برأسه.. وربما يعتقد أننى سأختفى.. أو تراه واقفا بالجوار يرصدنى فى لحظة تلفتى حول نفسى باحثا عن مكانه.

حتى الذى بالوراء لأتقدم من الشباك.. كسول الموظف ومنبعج الأجفان.. كل الشكوك المراوغة سوف تزول عنده.. ويأخذ تذكرته وينفض الأمر.. وأتعرف على شكله الذى يلح علىّ، ونفترق، لألوذ بنفسى..

نبهنى صوت الموظف المقتضب.

(- تأخذ تذكرة).

كان يقول وقلمه ينبش على دفتر تذاكره.

(- اثنين).

تأهب صعود الرفض تأخر بداخلى.. و.. قطع التذكرة ودفعها إلىّ.

ضغطنى قيد مباغت، عرقل لسانى. أثار أحشائى.. التف الرجل حول عنقى.. اثنان بتذكرة واحدة! بورقة فى حجم الكف، وبعربة واحدة. وربما فوق كرسى واحد؟؟

تستهوينى مناجاة نفسى بين صخب البشر الغرباء لكن.. انخلعت من الطابور المضغوط.. واقفًا بوسط الصالة بين تعارض المهرولين عبر الأبواب. التف حولى، لعله يرانى ويجىء.. تبصرنى أعين مندهشة، فذراعى المرفوعة بالتذكرة جعلتهم يلتفتون بفضول حارق.

أشفقت على مهانتى وأنزلت ذراعى. مرهقًا بصحوى الإجبارى.. انتظرت أن يأتى.. يسألنى.. تحركت نحو فناء الأرصفة. وتطلعت خلفى لعله يتبعنى بصباح أبيه الأسود.

أعادنى البغض إلى الصالة.

لمحت رجلاً متواريًا بجوار بروز حائط.. يشير لى بيده اليسرى، ويده اليمنى فوق جيب قميص خارج عن بنطلون مهرول.. مشغوف الحدقتين المتحركتين بذعر، تجوبان رءوس كل الظاهرين تباعًا عبر حدود الأبواب، بتوجس مرتاب فاق هاجس الشك لدى، وهو يشير علىّ بالانتظار والتأنى. مشاعر الريبة تهيج روحى.. أشرت له بالمجىء وأنا أشرئب، فقد فصلت بيننا حركة الربكة والهلع.

أشار علىّ بالصبر والسكوت - وكنت ساكتًا.. وكان يمسح رءوس المقبلين بنظرة المرجف.. لوحت له بذراع البغض. فأشار إلىَّ بتذمر أن أصمت.. ونظرات الخافت الرأس الخائف تدفع جسده من ظل بروز الحائط.. حين هرول نحوى وليته ظهرى. عندما جاورنى المسير قال بنبرة تضرع.

(- أرجوك. امش وأنت ساكت).

تجاوزنى بخطوتين، ملتمسًا إرضائى بوضع يده على صدره حيث جيب قميصه المتهدل.

(- لا تؤاخذنى.. هات تذكرتى).

بطرف جيبه تبرز ورقة بيضاء، استرعت نظرى، ورقة أولاها

اهتماما ظاهرًا.

تهكمت بامتعاضى.

(- أنا وأنت تذكرة واحدة).

توجه إلى الفناء المزحوم بالبشر قال:

(- هذا أفضل.. نعم، أفضل حتى لا يعرف أحد بخطوتى.. وانتقالى..) بين ارتيابى المندهش، تلفت حوله بحذر.. وهو يتابع حديثه..

(- وهذا أفضل لنا. نعم. حتى تغطينى). وابتعد نحو ظلال كشك الجرائد الموصد مخلفًا برأسى قوله الغامض «تغطينى».. ارتعدت، وهرعت مأخوذًا بحنقى ألاحقه.

(- ها..!! أغطيك.. تقصد أتستر عليك؟).

أشاح بيده كأنه يصرفنى.

(- ليس هكذا بالضبط.. أقصد نكون صحبة).. تأججت برأسى اليقظة.. تفور.. تفقدنى توازنى، تجرفنى مشاعر الارتياب فأبتعد موليًا له ظهرى.. ويقول (- لا تقلق هكذا.. خلى التذاكر معك).. واجهته وأبدان البشر تفصلنا.. أقول (ولماذا لا تخليها معك أنت.. وتخلصنى؟).

(- أنا مطمئن معك.. أنت رجل طيب).. وانطوى بظلال الكشك مرسلاً عينيه نحو الأبواب، ملامسًا الورقة بيده.. شغلتنى أمعائى المنقبضة، موقنًا من إمساك سيعترينى ويصدعنى ويقرف رحلتى

فقررت الفرار.. رميت بخوفه وحذره عرض أكتاف البشر، رافعا صوتى، معالجًا بنفسى تيبس مصارينى بأريحية قرار الهرب.

(- أسمع.. أنا ذاهب لدورة المياه.. ها).

(- لماذا؟)

(- لماذا؟!.. تعبان..)

(- طيب.. طيب، لا تغضب، اذهب).

(- هكذا بكل. سهولة. ألا تتوقع هروبى؟)

وصوته يعلو رويدًا، ليجلو عن نفسه بعض القلق.

(- إلى أين ستهرب والتذكرة معك.. سوف تأتى). ابتعد.. أحث نفسى. «ولماذا لا أهرب»؟

وهو يلاحق أذنى بصوت أكثر ارتفاعًا ليصلنى عبر صخب البشر.

(- الدورة بالجانب الآخر من «الحوش»).

تصدمنى هرولة الناس وأنا أدير رأسى للوراء وأشرئب لأراه.. يراقبنى وهو يدنو من السور الحديدى الفاصل بين الأرصفة والحوش.. يدى ترتفع فوق مستوى الرءوس بالتذكرة ليرانى.. توارينى الدورة.. أخرج التذكرة. أتفرس فيها.. تراودنى فكرة التمزق والإبقاء.. أودعتها جيب قميصى. وقعدت أطرد مخلفاتى. مفكرًا بإلغاء السفر، وقضاء بقية النهار فى الشوارع ليعلم العالمون بسفرى بأننى بالفعل مسافر.

فلأعط له التذكرة وانتهى.. ربما يكون قاتلاً، أو سارقًا، أو مراقبًا من جهة مباحثية عليا لذلك يولى الورقة اهتمامًا بالغًا.

أهى أحد المنشورات؟.. ارتعدت.. داهمتنى دقة على الباب. توجست.. هو الطارق..هو..؟

نهضت بصمتى المترقب.. تكرر الدق.. سحبت الباب برفق.. طالعنى وجه عامل الدورة بكوزه الصدئ وقطعة قماش المسح قال:

(- تأخرت بالداخل يا فندى. أنسيت نفسك؟).

كتمت ارتعادى بحنقى المتوغل برأس انصرف للحظة عن موعد قيام القطار.. انغمست بين الزحام. والفجر ينشر لونه الرمادى على الكون..

الرجل ليس موجودًا..!

هرعت إلى كشك الجرائد الذى فتح بابه، هل تسلل وآثر الفرار.؟

هل قبض عليه؟

تأخذنى الوجوه الوافدة.. نزعته من دماغى وتوجهت صوب الرصيف.. لكن. باغتنى ومر بجوارى حين تجاوزنى. قال وهو يتقدم.

(- والقطار قادم من هناك، هيانركب). كان القطار قد استقر بجانب الرصيف. سبقنى، وركض. طفح الحنق برأسى. قلت.

- أنت هارب من أحد..؟

قال وهو يتوارى بخواء القطار..

(- هذا ليس من شأنك يا صديقى).. تحليت بالسكوت.. صعدت إلى الباب، يقيدنى قرار الهرب الذى قررته ولم أنفذه.. فلأمض الآن. أنعتق مع أول بوادر الفجر.. أطل برأسه من إحدى النوافذ. يقول:

(- ألن تصعد يا رجل. هل غيرت رأيك؟).

بك أو بدونك سأرحل. نعم. هيا، اصعد، ربع ساعة ويغادر القطار البلد.. قفص وأقفاص وركاب لاهثون. يتوافدون.. يتصايحون.. أطفال الدنيا السائبون يتسلقون بدن القطار المجهد مع العسكر الكاكيين، يعتلون ظهره العجوز.. ومضى برأسى خاطر أزعجنى وعبر.. خاطر ضغط روحى. أثقل خطوى لحظة عبوره.. خاطر دفعنى إلى ممر القطار.. جالسًا إلى جوار نافذة باطمئنان مراوغ، يلوح فوق وجهه المصمت المتوارى وراء ورقته المنشورة يعيد قراءتها.. حين لمحنى أتقدم أجفل، وطوى الورقة. ونظر إلىّ بحنو الأسيان ليقول بحلق تقلص بغصة.

(- كان لابد أن تصعد).. وأنا أقعد على الكرسى المقابل، شاعرًا بتسرب غصة صوته الواهن، وقد قرب الورقة من جيبه بتردد. ثم أنزل اليد ووضعها تحت فخذه.. يحتوينى الصمت. رأسى الثقيل يغزوه صداع، وهو.. يقول.

(- أراك حائرًا بين الصعود والهبوط. لماذا؟ لماذا جئت إذًا ودفعت ثمن التذكرة) مشغول ذهنى بتلك الورقة المخبوءة.. أمضطر أنا لتحمل عواقب المجهول؟ صارت عيناه بوابتى دخول وخروج، يمر خلالها الوافدون، ولا يستقر بالدماغ أحد بعد..

مزنوقة حقيبتى بين الجدار وبينى.. لمحت القلق واضحًا فى العينين، والشفتان تختلجان.. قلت بصوت خافت.

(- يظهر أنك مضطرب).

فانطلق يقول على الفور..

(- جدًا.. جدًا، وخائف)

(- هارب ومطارد).

سحب الورقة من تحت فخذه، أودعها جيبه.

(- قتلت..؟).

امتعض بأسى..

(- هل شكلى شكل قاتل؟!).

نحيف بدنه.. ممصوص الوجه قال:

(- قل: مقتول).

(- مقتول ومطارد..؟)

(- مقتول ومطارد).

(- من الذى يطاردك..؟)

(- كل الناس تطاردنى، أمى العجوز، إخوتى. أطفالى وزوجتى. كلهم يريدون أكلى).

(- أطفالك وزوجتك؟)

(- تصور؟ يعتقدون أننى أمتلك نقودًا أكثر مما أقبض وأبخل عليهم. دائما يطالبوننى.. لأننى أكره السلف. بالمرتب الشهرى أكيف نفسى.. أضع بيدها المرتب كله. كله.. وأقضى بقية الشهر وحدى مفلسا.. تصور.. لا. لم أعد أحتمل.. فكرت فى نقلى لبلد آخر. لابد.. لبلد آخر). ارتكن رأسى على الجدار، مراوغا صوته المتواصل بغضب.

(- بالليل تشاجرت معهم ومشيت. هبدت الباب خلفى ومشيت.. بعد نصف الليل مشيت). والغصة تسد حلقى، وتشده لرغبة البكاء.

(- لكن هى.. هى. فتحت الباب. وهرعت ورائى فى الشارع.. تصور فى الشارع..؟ هى تجرى وتقول، خذ هدومًا معك.. وأنا أجرى. خذ طعامًا معك.. وعيالى يجرون خلفها.. لكنى هربت.. هربت..).

أغمض عينى لأغفو.. يدخل تلافيفى.. يناوشنى. بهدوء المتحسر.

يقول:

(- لا أعرف حتى الآن، إن كانوا عادوا إلى البيت، أم ما زالوا يجرون فى الشوارع).. القطار يتحرك، يهزنى بقوة. وصوته المتأسى يصلنى بوهن:

(- يجب أن أقدم نفسى لرئاسة الهيئة بالقاهرة. لابد من فعل شىء يريحنى).. أتقاوم.. مرخيا بدنى المشحون بالتوتر.

(- على الواحد منا أن يجد نفسه، وأنا سأجد نفسى فى أبعد فرع، ولو فى أقاصى الصعيد الجوانى. ولن أفكر فى العودة). كف صوته عن العبث برأسى. تحسست حقيبتى.. صحوت عندما سكت، لمحت جلد وجهه المشفوط يتقلص بإصرار وشرود فأغمضت عينى ثانية، وقد أجهدنى صوته.

(- ألا تكفى عشرة أعوام زواج؟ لم أشعرهم يومًا بأننى لا أملك غير راتبى الشهرى. هل يكفيك أنت؟).

رأسى على صدرى. فتحت عينى.. موشكًا على الانفجار.. لمحت أذرعًا بأصابع وسيقان رفيعة وقذرة لأطفال يتمطون أسفل الكرسى المقبل حيث يجلس الرجل.. أطفال أدركهم الفجر الطالع والريح المعفر بحركة القطار الزاحف. بائتو الليل الفائت بالقطار البائت بمخزنه الوحشى القريب، يتمطون.. لم أرفع رأسى عن صدرى.. غشى الرجل صمت ثقيل ومباغت هدل تقلص جلد وجهه مختلج الشفاه، مدليًا رأسه ناظرًا إلى أسفل مقعدى. تيقنت أن هناك عيالاً آخرين، عاند إصراره الذى فتر بقول:

(- الحل هو السفر.. نعم السفر).

كانت الغصة تحشو فمه.. أغمضت عينى لحظة.. حين فتحت رأيته ساندًا رأسه فوق كفه، متطرف الحدقتين إلى أسفل غائبًا فى أعضاء العيال المتناثرة، وصوته الآتى من عمق بئر يقول:

(- لو لم تجر المرأة خلفى، والعيال، ربما كنت غيرت رأيى ورجعت).. فأغضمت عينى وهو يربع على الصدر ذراعيه، ملامسًا بأنامل مرتجفة طرف الورقة.. ملاذى الآن اللجوء لغربة أخرى، لبشر آخرين.. يحدثنى، ويدرك تجاهلى له.

(- نقلى لبعيد أفضل..)

أبتلع غصته المملوءة بالدموع.

(- ماذا يحدث لو ابتعدت؟ لا شئ).

فارقنى الوهن الذى ينتابنى ويخدر بدنى أثناء السفر فأغفو إغفاءات أرانى فيها هائمًا فوق فراشى أصارع النعاس لأصحو فى مثل هذا الوقت من الصباح.

أتململ. تقهرنى أفكار الصبح المعتادة.. يلفظنى فراشى.. يجرجر أقدامى الحمام.. يغسلنى الماء.. تتناهى لسمعى أصوات النوم السائد فوق الزوجة والأبناء.. تتهدل فوقى أكفانى اليومية.. يسحبنى حذائى لدرج يدحرجنى لباب يزج بى لشارع محفور بالرأس، منذ عهد الأب الراحل.. تحتوينى الشمس.. أو الريح أو المطر.. تغتال الشمس آخر ما تبقى لدى من نعاس.. ركاب آخر

الوقت يتوافدون، يلهثون.. يتداخلون بصخب الصبح الطالع بشمس متوارية وراء جدران المحطة تنذر بيوم قائظ.. بما يتفوه كلانا حين يجيء المحصل؟

أهو معى.. أم أنا الذى معه؟

فتحت عينى.. منشورة الورقة بين يديه، تخفى نصف وجهه المصمت المعاند - مقطب الحاجبين، غائب النظر إلى أسفل. يرقب آخر العيال المنسلين ليتوهوا بين الزحام.

والقطار يهتز.. يشق الضباب ويرجنى.. ويميل رأسى على الجدار.

أغفو.. وينزلق. أرفعه.. أبصر الرجل مغلولاً بالصمت، طاويًا الورقة بين أصابع يده المرتخية فوق ساقه.

- ما رأيك.؟

كمن يحدث نفسه، سأل.. وعيناى تزوغان بشكله الحائر داخل دماغى المرتبك.. فى مثل هذا الوقت من الصباح يبتلعنى باب العمل، يمتصنى.. يعتصرنى النهار.. أتوق إلى التحرر، الانعتاق.. فجأة وثبت.. تأبطت حقيبتى. فزع.. قال:

(- إلى أين؟).

أندس بين الأبدان..

(- مشوار وراجع).

(- أتتركنى، ومعك التذكرة؟).

يوارينى الزحام.

(- تريدها معك أنت؟).

صاح بصوت متقطع النبرات..

(- لا.. لا، معك أنت أفضل.. ربما.. أنعس).. اخترق بشر الممر..

أدركت أن العربة التالية خاصة بالدرجة الثانية، والمحصل هناك - محشور - يزاول شغله.

كان القطار يزحف ببطء، قريبًا من محطة كفر الدوار، ويوشك على التوقف.

هى أول بلدة بعد المدينة. فلتهبط، وتركض.. لكن التذكرة معى، وعيب ترك الرجل وحده.. أتملص من بين أبدان المكابدة.. كان مقعدى لايزال فارغًا.. والرجل ليس موجودًا.. على مقعده رجل آخر، يحتضن طفلة، وطفل آخر فوق فخذه قاعدًا.. تزايد غيظى. مؤكد ذهب ليبحث عنى درت بعينى خلال تكدس الأدمغة.. أشرئب.. أتطاول وقد توقف القطار.. توافد ركاب آخرون بأحمالهم.. انحشروا بالممر المزحوم.

حين ضاق بى البحث. لعنته بسرى، ومررت لأجلس متوقعًا مجيئه.

وجدت مزق أوراق صغيرة. ومتناثرة بركن الكرسى، وعلى إفريز النافذة.. فتافيت قطعت بعناية. وطيرت لكن لم تطر كلها.. بعضها بوسط مقعدى.. جمعتها بهدوء وجلست أنظر، محاولا تجميع جملة واحدة.. كلمات متفرقة.. فقط.. تكرم.. مقدمه.. رجاء.. نق.. تعب... ع.. و.. صعيد.. نقل.. ألقيت الورق.

وكنت أدور بعين.. أدور.

ماء القصب

فى الثانية ظهرًا، قبضوا عليه متلبسًا بالقصب.. عائدين كانوا من بيوتهم القميئة المتطرفة بحذاء المدينة. وكان يحمل فوق كتفه حزمة القصب، يتخطى فلنكات السكة الحديدية بخطو وئيد واهن. وبين الحين والآخر، وبعد كل مسافة، ينظر إلى الوراء، يستطلع أفق السكة التى بين المزارع المتاخمة للمدينة، يطمئن قلبه لخلو القضبان البعيدة، يعدل نفسه، تدور الحزمة، ويواصل المسير الوئيد..

،هناك، فوق الرصيف، كانوا ينتظرون قطار الضواحى وينظرون إليه، ينتظرون قدومه وهو يصعد منحدر الرصيف.. بارتياب منهك، حوطوا بدنه الضئيل المجوف حامل القصب.. عشرة أعواد بيض مربوطة بحزام من قش الزعازيع.. أوجس.. بعد يوم عمل شاق فى ربط مسامير الفلنكات والتأكد من سلامة القضبان، ومروره اليومى ذهابًا وعودة بكبد الشمس. يوجس.. يرتعد.. وجوه داكنة وجهمة.. مصمتة.. تنذر بالغموض والخطر.. أوقف التوجس.. نظر وأجفل..

تحرك خطوة.. تحركت أقدام الحذر المتحفزة: توقف.. التصقت قدماه المنتعلة حذاءً مكعوبًا يجف به طين متيبس..

أدرك أنهم مخبرون ريفيون يزاولون العمل التعسفى. فكر.. لا ليسوا لصوصًا كما ظن، أو قطاع طرق.. مخبرون.. إنهم يقصدونه، فليس بالمكان آدمى آخر «يتلفع» بقصب سواه.. ظل مبهوتًا.. يرقبون تصلب جسده المنذعر.. حسبوا صمته خداع لص يبغى المراوغة والهرب فحاذروا وتدنوا.. فكر، لو كانوا لصوصًا لهان الأمر، لترك لهم الحزمة ومضى.. لكن فظاظة الأكف تثاقلت فوق الكتف والقصب.. قال الأول..

– وقعت يا لص الحقول يانتن..

قالى الثانى بصوت المندهش..

– أنت إذًا لص القصب..؟

عبثًا راحت محاولاته لعتق الكتف من القبضات...

– أنا لست لصًا.. أنا عامل ضمن عمال المقاول التابع لهيئة السكة..

– أى هيئة يا لص.. تعال..

الثالث الذى بالوراء.. دفعه.. انخلعت القدم عن الحذاء، نحيلة مترية.. كف الرجل مطرقة دقت الظهر.. لفظ سعالاً احتقن له الوجه المرهق. ارتجت الحزمة وكاد ينكفئ.. توسل..

- هذه حزمتى.. اشتريها من بائع كان يسرح على مدخل كفر الدوار..

سخروا فى مجون وقالوا..

- وجئت من كفر الدوار وهو هكذا فوق كتفك؟ غلبان..!

- يا عينى. ماشيًا تعد الفلنكات؟

- مسكين يا لص يا نتن..

نعق قطار الضواحى من بعيد.. يد الثالث تدفع مؤخرة الحزمة.. ارتج البدن الخائر مع صوت النعيق الآتى..

صعب هو الانعتاق.. صوت النعيق يزاحم تجاويف الضآلة فى البدن.. دوار.دوار..

- قل هذا الكلام الفارغ فى النقطة..

مشدوهًا قال:

- منذ زمن بعيد أشترى القصب من تلك النواحى، وأركب به القطار، ولا أحد يعترضنى. فقط لأنكم مستجدون ولا تعرفوننى: احتقن وجه المخبر الأول. اغتاظ، وسحب عود قصب من الأمام ليجرجر به الرجل. لكن العود انسحب بيده وحده، مجرجرًا المخبر إلى الوراء. أصابه الحرج.. كسر العود على ساقه إلى ثلاث قطع. راح يمتصه بلذة..

- هيا القطار جاء..

قال المخبر الثالث الذى بالوراء، وشد عودًا. أمعن به النظر والثانى يقول..

- لو كان غير مسوس هات عقله..

كان منخورًا بالسوس. أعاده إلى الكتف وسحب آخر.. والقطار يدخل الرصيف بوهن. والأول يقول باستغراب..

- تسرق قصبًا يا غبى.. قصبًا..؟!

يركبون. أضراس سوداء تعصر.. تطحن.. أصوات تقزز.. أقعى الرجل.. أسند ظهره إلى ظهر مقعد قرفص.. بدا ككومة قش مربوطة بجلباب رث.. والحزمة إلى جواره.. قال بصوت متخاذل..

- على كل حال الصول الذى بالنقطة يعرفنى..

واسعة أشداق الرجال. بلذة يمتصون. يقشرون. وبنزق، يقذفون المصاصة من النوافذ..

حين توقف القطار بمحطة مصر، كانت حزمة القصب قد امتص نصفها..

تبادل المخبرون الثلاثة النظر.. فكروا بترك الرجل المقعى يجتر صمت حزنه للمجهول الآتى.. فليأخذ النصف المتبقى ويمضى لحال سبيله لكن صمته المطمئن مريب.. أوجس رءوسهم. لعله متمكن - رغم أسماله - من معرفة سلطوية أكبر من الصول..

يتوجب حيال توجسهم المشبوه تبرئة أنفسهم بعمل محضر فعلى بالنقطة، أو يكتفون بتسليمه بنصف الحزمة، خمسة عيدان، وهناك يتم التصرف فى أمره بمعرفة مسئول النقطة..

استعد الصول للانصراف. ارتدى غطاء الرأس. شد أطراف سترته البيضاء.. لمس بأصابعه أزرارها النحاسية المطموسة.. توقف على باب النقطة يتابع بالضجر وجوه البشر المتوافدة عبر الأبواب. يسعون بدأب - بعد انفراج أبواب المصالح عنهم - صوب قطار الضواحى... لم يلمح وجه صول النوبة الثانية.. تفزز فقد توجب تواجده الآن قبل حلول الساعة الثالثة - تذمر - موعد انصرافه قد آن..

أشار لجندى حراسة الباب. قاعدًا كان فوق حجر، ساندًا للحائط ظهره. يؤرجح بندقيته العتيقة بين ساقيه، يطالع بنظر كسول عنوان جريدة لرجل سائر بخطو وئيد يقرأ مانشيت الرياضة. والجندى يفكر.. (القضاء على الإرهاب..) قال الصول وقد تجاوز الجندى..

- خذ بالك من النقطة.. الصول الجديد على وصول..

وانصرف والجندى يومئ برأسه المرتخى.. طيب.. طيب. لم يأت الصول.. جاء المخبرون الثلاثة، يحيطون بالرجل المضعضع وقد ازداد ضآلة تحت حزمة القصب.. حافية قدماه ومشققة.. يجرهما..

فـراغ النقطة أوحى للمـخبـرين بالسكون.. أهمـد برءوسـهم التـوجس.. فكروا فى مـزاولة العـمل اليـومى المألوف. المرور فـوق الأرصفة، حول القطارات.. الانسحاب خلسة - ضمن المرور - إلى خارج المحطة حيث السوق المزحوم بالخلق والباعة لتصريف الوقت والحـصـول على ثمن الرضـا والبـقـاء من باعـة احـتلوا جـوانب الشوارع..

وضعوا الحزمة بحجرة النوبة إلى جانب مكتب الصول الغائب.. ووضعوا الرجل فى غرفة الحجز، وأوصدوا بابها.. اطمأن المخبر الأول. تمطى، وقال..

- بماذا نبدأ..؟

- قال الثالث وهو يتحرك..

- نبدأ بدورة المياه.. أنا مزنوق.

قال الثانى وهو يغادر إلى الرصيف..

- نترك خبرًا لجندى الحراسة أن يبلغ الصول عندما يأتى أن يحرر محضرًا بواقعة القصب..

اتبع الأول خطو الثانى.. قال..

- أو نفتح نحن المحضر غدًا.

لحق بهما الثالث. قال بأسى مفتعل..

- العيال يريدون اليوم طبخ سبانخ باللحم..

- أيوجد سبانخ فى الصيف يا رجل؟

- المرأة نفسها فى السبانخ..

- فى السبانخ حديد.. حديـ يـ يـ يـ يـ د..

تخابث الثانى وضحك..

- لعلك تريد طلوع الجبل بالليل..

- بالليل وكل ليل وشرفك النصف نصف..

تضاحكوا. وتلاشوا وسط الزحام، ويذكر أحدهم ترك الخبر لجندى الحراسة الذى أتعب مؤخرته الحجر. فتوقف وهو يؤرجح البندقية فوق كتفه.

حط الليل فوق المحطة.. جاثمًا.. احتوت الأرصفة القطارات فى نوبة بيات، والصمت يتوالد. يجوس البواكى مع جندى هزيل هده طول التجوال، وبندقية يؤرجحها بذراع لطرد النعاس المراوغ..

تهاوت النقطة فى الصمت..

كان الصول قاعدًا وراء مكتبه الصفيحى الصدئ. فوضوى الشكل. وحيدًا.. تعبث يده المعروقة فى دفتر الأحوال بذهن غائب.. تراوده حزمة القصب. يفتح جريدة المساء. (القضاء على الإرهاب..) والحزمة تراوده.. يطوى الجريدة.. مجاورة الحزمة وفى متناول اليد. كسر عقلة من أسفل عود. امتصها بلذة حين رأى العود قصيرًا وسط الحزمة، أخذه، وابتلع ريقًا حلوًا.. فكر.. نوبات العمل بنقطة ميدان الشهداء أفضل. أمتع كثيرًا. إلى جانب السوق هى..

سحب العود القصير.. قشره رائع هناك الليل، يؤنسه الباعة والأضواء والحركة. وأشياء أخرى تمد الجوف بالدفء وتوقظ الدماغ.. قشر بأسنان قاطعة وحادة.. الصمت هنا والوحشة الليلية تسوق البدن إلى الخمول والخطر.. هناك فى الميدان تمتد أيدى سائقى «المشروع» بثمن المرور فى الممنوع.. بين ضفتى نهر غير آمن، يتوجب العوم فيه والطفو..

تحت القدمين والمكتب تراكمت مصاصة العود الأول.. نقص من الحزمة عود.. لمن هذه الحزمة؟ من جاء بها لحده؟ ما موقف صاحبها عندما يجدها ناقصة؟..

عودًا آخر شده.. امتصه.. ابتلع سكره بنهم النشوة.. فى هذه النقطة المعزولة، تتكاثر المهاترات وفك التحام المشاجرات بين الركاب.. تحويل النشالين إلى القسم الرئيسى، أو استدعاء لإسعاف لنقل جثة مهروسة..

صوت التقشير الذى يخرق الصمت أبهجه. أسعده..عصر الأسنان النهمة والأضراس. تحريك الشدقين والفكين يمنحه شعورًا عظيمًا يؤكد مدى قوته رغم تعديه الخمسين.. عندما أوغل الليل فى القدم، وتطايرت نسمات البرودة.. كانت الحزمة قد صارت قشورًا معصورة وزعازيع.. نفض ثيابه. سلك أسنانه.. لملم المصاصة من تحت المكتب. وخرج..

نثرها، متفرقة، ومتباعدة فوق الفلنكات. بين القضبان والقطارات.. حين انتهى، فتح أزرار بنطلونه.. نظر حوله.. راح يتبول بكثرة.. ولذة..

محطة الخواء

تراودني.. ورأسي مهوش بين يدي صديقي الحلاق.. (هل أقصر قليلاً.؟)..

تتسلق تلافيفي، بجسدها النحيل.. يتبختر.. والوجه الصغير ضحوكًا كان، ومحاطًا بشعر بني مطلوقة خصلاته من بين حواف إيشارب الرأس الأحمر، يتراقص كالفرح بفعل هواء قطار يتهادى بخيلاء، يفجر بالوجه فرحة كانت مخبوءة. تتصاعد وتوتر البدن عند استقراره بجانب الرصيف كرجل يأخذ أنفاس الراحة ثم يمنحها الشيء المأمول. لكن الأبواب تلفظ ركابًا من كل الأنواع. يسكبهم الجوف فوق الرصيف لتمعن فيهم هي النظر واحدًا واحدًا، بلهف تسحب معه البهجة رويدًا عن الوجه الضحوك ليقنط مع نزول آخر النازلين. ليصعد آخرون. مثقوبون كانوا بنظراتها المدققة منذ وقت الانتظار وبيد الرفق الغضوبة تلامس بدن القطار بلحظة قيامه.

كمن تقول: هيا امض ليأت غيرك. ولتفسح له المكان.. وهو يتسلل فوق قضبانه كالغاضب الكسول، وسرعان ما يركض صارخًا مودعًا خواء يفترش الرصيف. يتغلغل ليمكث بالروح مدة اختفاء القطار بين المساكن البعيدة. لتتصلب وحيدة بأمل متجدد بقدوم قطار آخر يكمن به ذلك الشىء المأمول..

(تريد تغطية هذا الفارق الشاسع بالشعر؟).

بالرصيف المواجه أكون. وهى بالرصيف متوحدة بالخواء. وجونلة سوداء طويلة، وبلوزة بيضاء متهدلة. تجوب الرصيف بدبيب كعب حذاء عال. كانت الأرض قد بدأت تأكل حوافه على مهل.. تنظر فى كل الأنحاء بدأب الباحث المتوقع رؤية المأمول هابطًا من السماء أو صعوده من تحت الأرض بشكل مباغت..

ثم تمد الخطو بصمت صابر مضغوط على الصدر بفعل الذراعين المعقودتين بوقار مفتعل، وخطو وئيد، فوجوه الرجال بدأت تبدو عبر المدخل، تتوافد، وهى تتفرس بحياء يتخفى وراء وجه ضحوك.. يتكاثرون تباعًا.. تجوس بهرولة كالراكض الخجلان.. ليس هناك هو.. تتوقف حين تخترق مشاعرها بعض الأنظار.. تسأل أحدهم عن الساعة، وتوجه النظر إلى القضبان، وحين يجيب المسئول، تومئ برأس الشاكر الحائر المندهش لتأخر القطار..

ويجتذب البدن هاتف يومض بالذهن. بغتة.. يهيم بالعينين والقلق.. تهرع إلى المدخل، إلى الأركان المعتمة.. تتحسس جوها

الساكن بلهف.. يمكن أن يكون مختبئًا هنا للمشاكسة.. لكن الهاتف يتفاقم.. يراوغ الذهن.. تدور حول أعمدة المظلة، قريبًا من تجويف حوامل المقاعد الحجرية.. تهرول عائدة إلى موقع مبنى شباك التذاكر. يلتصق ظهرها بحائطه الزجاجي لتتمكن من رؤية وجوه الوافدين الجدد وهم يشترون التذاكر ليخمد الومض الهاتف والتوقع.. تركض إلى حافة الرصيف ممددة الوجه والنظر، يمينًا مرة. وشمالاً مرة أخرى.. يبتهج الوجه بأمل يصحو، ينمو بضوء قطار آخر يتجلى فى المدى ويتقارب بوهن، مثقلاً بالأبدان المنهكة، يغشى القضبان.. تتفتح بالصدر المنتشى مساحات رحبة، تشمل القطار المجهد الآتى ليرتاح هنا لبرهة.. لكن قبل دخوله المحطة، يومض الهاتف، تركض بشغف حول الوجوه خشية انفلات وجه جديد يمكن أن يكون قد وفد وتوارى فى غفلة منها.. وتعود بصدرها المفتوح، بتأهب الروح لاحتضان القطار الذى يطرد آخر أنفاسه المتعبة.. تصلح هندامها باختلاجة جسد يغمره ابتهاج بشوق رؤية المأمول. تباغت آخر بالسؤال عن الساعة، ولا تنتظر إجابة، وترفع حوض الجونلة ليظهر الحذاء المغبر قليلاً مشطوف الكعبين.. تمسحه، والقطار يطرد من جوفه ركاب الليل مثقوبى الأدمغة بالمكابدة النهارية ونظرات الأسى المتهافتة من عيونها التى تلاحق الوجوه بصحبة الهاتف الوامض لتهرع.. تتوقف لدى المدخل لترى كل الآتين.. من هنا يمرون.. يتفرقون فى السوق والأزقة يمرون.. تطالع.. تبحث لتسأل آخر الذاهبين عن الساعة، وهى تحث خُطا التمهل الواهن نحو فراغ الرصيف.. تنظر لبدن القطار الذى تسلل

هاربًا ببطء هو الآخر، تاركًا لها الخواء والليل وبقايا ريح تنذر بالبرد.

توافد ركاب آخرون اعتلوا الهاتف الوامض.. نساء توقفن مع رجالهن والأطفال.. مس القلب حنين هائج أبهج الوجه الضحوك.. مشغولين كانوا بالصمت والانتظار الملول.. يومض الهاتف.. ينحى البهج عن الوجه الذى تجمد بشحوب مباغت.. اعتلت سور درج المدخل الواطئ.. ترصد الركاب الليليين حاملى أكياس الخبز والخضر والرءوس الثقيلة.. مؤكد ذلك الرجل المأمول، منقوش بالذهن.. قال إنك آت إليها.. إلى هنا.. مؤكد.. موعدها كان فوق الرصيف.. ولم يقل - ربما - بأى وقت بالنهار سوف يأتى.. راكبًا قطار المدينة.. كان يجىء مع بداية انسحاب النهار، وولوج أول الليل.. ودائمًا ما توشك الساعة على العاشرة.. ربما تأخر قطاره. . لكن كل القطارات تمر عبر الضواحى فوق هذه القضبان وتنتهى هناك (بأبى قير)...

- إيه يا رجل أين ذهبت برأسك..؟

كان صوت صديقى الحلاق يعبر قشرة رأسى.. يشدنى من فوق الرصيف.. يعيدنى إلى المقعد والمرآة..

- ها هو رأسى بين يديك..

- منذ جلست وأنا أسألك.. هل أقصر الشعر.. أم.. ..؟

أجدنى مأخوذًا بالمرآة.. غزيرًا شعرى وأسود مشعثًا حول الفراغ الأوسط الذى كان يتسع رويدًا.. شددت جلد وجهى برفع رقبتى ودنوت من المرآة أتفحص شعيراتى البيض الواضحة بالذقن النابت.. عدت بظهرى لأقول:

- ما رأيك لو أطلت سوالفى قليلاً؟

قال وهو يقصف شعيراتى البيض بالملقاط:

- السوالف الطويلة يمكن أن تظهر بياض ذقنك.. خاصة هذ . المدفونة بجانبى رأسك..

ضحكت لوجهى الأملس المطبوع على المرآة.. لشاربى الأسود..

ليل الحر الخانق يلف المحطة، فوق الصمت المراوغ والخواء.. وهى بخطوها الواهى الوئيد تذرع الرصيف، وتودع - بالنظر - قطارًا توارى هناك بين المساكن المضببة بأغبرة الجو المعلقة.. رفعت طرف فستانها الصيفى المزركش، وكومت الجسد فوق مقعد بأسفل المظلة.. تدور عيناها بتأهب المشرع فى القيام المتوقع ظهور الشىء المأمول.. لكن حين رفعت ساقًا فوق ساق بدا جلد السمانة مصفرًا، ومغبرًا.. كان كعب حذائها متآكلاً ومحيكًا نعله الملوث بطين يابس.. تأسى منى البصر.. انبعث بالروح ضوء قطار آت.. غمر المحطة والصدر بالنعيق الذى أرجف البدن الناهض بلهف..

أصلحت من هندامها.. فستان باهت الزركشة.. إيشارب منحول النسيج والحمرة.. وارت خلف نطاقه شعرًا مهوشًا.. مسحت الخد

والآخر بيد، وبيد تحسست بروز الجسد المنتشى.. لكن الهاتف الوامض أحال الرأس إلى التطلع فى المدخل.. يتوافدون.. ركاب الليل.. يتناثرون على المقاعد والرصيف.. تائهى النظر.. يتثاءبون.. تتخلل الأبدان وأماكن الوقوف بهلع.. تمعن النظر عن قرب.. وجهًا بعد وجه، دونما يندهش أحد.. كأن الوجه هذا والنظر قد صار مألوفًا لحد عدم الشعور بتواجده.. كان بعض الركاب يجيبون عن الساعة دون أن تسأل.. والقطار يلفظ أنفاس التعب ورواد جوفه والعرق فوق الرصيف.. لتبحث بركض الجسد وهاجس الفزع، والهاتف الوامض يدفع.. تركن الظهر عند المدخل لحظة.. يتفاقم لومض، تهرول، تسابق الوقت.. تنظر لكل وجه.. تصدر صوتًا خافتًا ـان مخبوءًا بالقلب (كامل.. كامل..).. تحوم قبل انتهاء آخر وجوه..

القطار رجل معاند، لا ينتظر أحدًا هنا، يبتلع ركابه ويرحل بوجل وقور تاركًا لها والرصيف هدوءًا وصمتًا ينتظر كسره بقدوم قطار آخر يأتى بالمسمى كاملاً..

تضحك بوجه يتجعد لرجل التذاكر المتجمد وراء شباكه.. يتغيرون دومًا وهى تهرع فوق الرصيف، تضحك لرجل يحمل فولاً وخبزًا.. تدور حول شاب يتأبط فتاة.. تومئ لامرأة حامل، ولطفل تعلق بثوبها.. ولماسح أحذية يتابع رجلاً منهكًا مكعوب الحذاء.. وتضحك بنظر خجلان لطفل راح يتبول ويصنع دوائر تتعالى وترش القضبان.. .. .. ..

يغشانى - بوهن - صوت صديقى الحلاق المتراخى.

- لقد تأخرت هذه المرة.. هل تعرفت على حلاق غيرى؟

- وهل أستطيع؟ انظر لشعرى.. يا حذق.. واحكم..

- إذًا أنت تحاول إطالته. ربما تفكر فى إخفاء الجزء الأبيض هأ.. يا صديقى الغفلان، رأسك ثلثه أبيض..

ضحكت، تلاقت أخاديدى فى المرآة المغبشة..

- ما الذى يرغمنى على تحمل عناء المشوار من الورديان إلى باكوس غير مقصك الفنان.. و.. مرآتك القديمة المسوسة.

- يا صديقى هذه المرآة جديدة، لم يمض على تركيبها عام واحد..

- إذًا وجهى هو المغبش؟ تقصد هذا..؟

ضحك وهو يقول..

- ماذا أفعل بوجهك أنا لى رأسك..

- خذه.. لكن دع لى مخى..

- رأسك دون المخ يتثاقل تحت يدى ويتخشب أريده معى لينًا.. أشعر بك كأنك تحمل هموم العالم..

- شعر لعين يطلع بغفلة منا.. تصور أننى لا أنظر لمرآة بيتى أبدًا.. مثلما أنظر هنا عندك..

- مشاكل الدنيا تأخذ الواحد. والزمن يمر.. هذا أمر الخالق..

- أمر الخالق والوطن وفواجع زمن الحرب والعبور...

كان شعرى الفضى المقصوص يتطاير.. يتساقط فوق الفوطة والأرض ويتناثر وتدوسه أقدام الحلاق..

- أنت تدوس على شعرى يا أحمق حلاق..

- كان شعرك.. وأصبح زبالة.. هذا شعر قفاك فقط..

- قفاى..؟!

- كل الأقفية تقع هنا تحت يدى. أيها الغفلان..

ضحك. وضحكت.. ورأيت أمكنة أضراسى المخلوعة.. تأسيت..

منكمش البدن المنخور بالزمن فوق مقعد بأسفل المظلة.. مضمومة الساقين النحيلتين - متكلسة القدم بوسخ قديم - إلى البطن المشفوط أسفل الصدر المترهل وراء ثوب مهترئ.. حذاؤها الممزق منزوع الكعب مقلوب، مهمل بأسفل المقعد وحده.. مرفوع طرف الثوب المبقع بالقار والطين، كاشفًا عن لباسها الداخلى، ممزق وباهت السواد حول عمودين ضامرين.. بشرود مركون الرأس المعصوب بإيشارب بال، انطلق - بتمرد - من خلال ثقوب شعر متجلد أبيض..

بين الحين والآخر، يرتفع الوجه الخامل متجعد الجلد.. تمسح المحطة بنظرة لهف مباغت، وبصوت متبلد واهن.. (كامل.. كامل..).. تسأل من يصادف وقوفه جوارها عن الساعة، دون سماع إجابة. مع أنها ترى الشفاه المجيبة.. (يا كامل..) صوت يحشرجه

غصة وجد مشتاق.. لعل كاملاً يجيب.. يسمع.. رويدًا يعلو الصوت.. يلتاع بومض هاتف تكابر لحد اكتساح الذهن ليستبد بالدماغ.. كامل.. لعل كاملاً يسمع.. صوت يتعالى عند نعيق القطار بالمدى البعيد..

تنهض بوهن.. تركض بوهن.. تصرخ.. كامل.. ويصرخ القطار الواقف.. يغشى صراخه فوق صراخها.. تربت بحنو على بدنه الحديدى وهو يغادر الرصيف ببطء الراحل المتمنى البقاء بجوارها يرحل ليتعدى الرصيف..

- .. لا أوافقك أبدًا على صبغ شعرك..

- لكن البياض زحف إليه.. أشعله كله..!

• وهل تغير الصبغة من تجاعيد الوجه؟

أمال رأسه الليفى نحوى وهمس ضاحكًا..

- أرى فمك وقد تجدد من الداخل..!

- نعم.. هذا طاقم جديد..

- أريد واحدًا مثله.. بكم ركبته..؟

احتواها ركن جانبى من المدخل.. قاعدة.. قنفذ متكوم وقذر.. مدهون الوجه المترهل بلون أحمر فاقع.. تحيط بها أحذية قديمة متناثرة.. أكياس بلاستيك متراكمة ومنبعجة.. زجاجات مغبرة ملقاة.. شعر أبيض مهوش، متجلد، يطوقه قطعة من قماش تهدلت فوق الحاجبين المدهونين بالورنيش الأسود.. وفم أهتم كان يهمس كلما مر من قدامها قطار.. كامل.. همس لم يكن يصل لغير رأسها المتطلع للخواء... ■

وقع بالدماغ

حين تيقظ، أدركت الرأس دهشة.. كان الصمت رابضًا بجو الغرفة.. شعر برغبة، مستجدة، تدفعه ليغادر الفراش الدافئ وينهض.. ويفعل الأفعال المألوفة فى هذا الوقت من الصباح. يتمطى.

يفرد ذراعيه لتصطدم إحداهما بالحائط المقشور. الآن هو مملح.. يمدد قدميه بقوة فتعبر الغطاء وتخرج عن قائم السرير. لقد أصاب السرير بعض صدأ .. ويتثاءب بصوت عال تمحوه جلبة الشارع.. لكن.. ثم يحدق فى السقف حتى يفيق فيمعن النظر.. بيوت عنكبوت قد تكاثرت بالأركان.. لكن، رغبة النهوض ألذ. شعور الصحو أطيب.

بعد رحلة طويلة مع ليل فاق كل الليالى الفائتة.. جثم فوق الصدر وقتًا.. نهض منتعشًا.. لم يتمط.. غريب لون الصدأ.. لم

يتثاءب اغتيلت الرغبة.. قال فى سره.. لعلنى نمت نومًا طويلاً فإننى أشعر براحة.. ولمح الستارة القصيرة المنسدلة فوق النافذة، مغبرة.. يذكر أنه لم يسدلها حين دخل فراشه: متى دخلت سريرى؟ هل أكون قد أسدلتها ونسيت؟.

نهض واقفًا.. حرك مفاصله. متجمدة: أيكون قد أصابها الصدأ هى الأخرى؟.

دفع الستارة جانبًا ليجد زجاج النافذة موصدًا.. يذكر أنه لم يوصده يومًا، صيفًا أو شتاء، فهو المنفذ الوحيد لدخول ضوء النهار وخروج أنفاس الليل، وطرد الصمت.. هز رأسه مستطيل الشعر.. وضع الفوطة فوق الكتف.. متغيرة الرائحة.. ربما أغلقت الزجاج ونسيت؟. وارتدى خفه البيتى.. اتجه صوب الحوض المعلق بالحائط.. تنبه لصوت مغاير لزحف الخف فوق الأرض.. لم يكن يدركه هذا الصوت من قبل.. ربما كان موجودًا وكانت جلبة الخارج تطمسه.. لكن اليوم، للصوت وقع خاص، رجع صداه برأسه، وقعًا محببًا.. كرر حك الخف بالأرض متعمدًا.. ثم توقف وأنصت لوقع آخر.. أهو الصدى برأسى..؟ وعاود الحك.. وتوقف بغتة، وأنصت.. إن كان الصدى برأسه فعلاً.. لكن للصمت صوت ينبعث فى الدماغ.. زحف فوق التجاويف.. دق يتباعد ويدنو.. فوق الصدر.. غائبة جلبة الصباح.. تأتيه كانت مع كل طلعة شمس. توقظه وتحشره فى ثيابه وتحثه على الإسراع.. أوعز انعدامها لغلق النافذة. فذهب وفتح الزجاج.. لم تأت الجلبة.. لم تحدث..

ربما لا يزالون نائمين:

واستدار نحو الحوض مشغولاً بمسألة الصمت المباغت هذا المحشو به رأسه.. رأس شعر بأنه أجوف ومستكين ومرتاح، كالذى نام وهدأ من الزمان وقام صافى الذهن لحد البلاهة، أنت لم تنم كثيرًا.. ماذا حدث..؟

يذكر. وهذه التذكرة كانت نائية جدًا وقد استخلصها من الرواسب، قد طلب إجازة من العمل لمدة يومين.. بعد سنوات كثيرة بلا إجازات. حتى اعتقد البعض أنه يعشق الهيئة عشق المرء لبنيه.. كانت يده تمتد لتفتح الصنبور.. وقد جاء إلى غرفته رأسًا بعد أن ركب أتوبيسًا، وفك معركة بالأيدى بين المحصل وأحد الركاب حاول الاختباء بين الركاب لعدم امتلاكه ثمن التذكرة.. ثم اشترى علبة سجائر وبعض الكتب التى تتحدث عن أجور العمال.. مخنوقة أعقاب السجائر فى طبق المنضدة. متغيرة اللون. كالحة.. جال بنظره فى أركان الغرفة بحثًا عن الكتب. غير متواجدة.. أأكون نسيتها فى الأتوبيس أو لدى بائع السجائر؟.

تنبه لعدم نزول الماء.. ترك الصنبور وانتظر قليلاً.. لعل الماء ينزل فجأة كما يحدث كل يوم - لكن حواف الثقب صدأة - إن امتناع الماء يحدث كثيرًا مع سكان الطوابق المرتفعة..

انشغل يغسل البراد وكوب الزجاج بزجاجة ماء الشرب إلى أن ينزل الماء.. لكن..

تحرك.. وهو يحك الخف.. نحو الردهة الصغيرة الملحقة بالغرفة وضع البراد فوق الموقد الغازى.. أشعل عود ثقاب، ويده

الأخرى على مفتاح الموقد.. لم توقد الشعلة. أدار المفتاح على آخره.. متى فرغت الأنبوبة..؟ ويذكر أنه صنع شاى الأمس، فقط. بها: ينبغى أن أغيرها بأخرى ملآنة وذلك حين أخرج بعد الظهر: ولم ينزل، أعاد زحف الخف فوق الأرض.. أيقن بأن بالرأس زحفا آخر بعيدًا..

اقتعد طرف السرير، وفكر فى الخروج بلا شاى أو غسيل وجه أدار الصنبور على آخره.. سدى.. مألوف هذا الانقطاع فى هذا الوقت من الصباح. فى السابعة والنصف ثم يأتى بعد خمس دقائق.. وامتدت يده تحت الوسادة.. سحب ساعته ونظر فيها.. عقارب مركونة بين الثانية والثالثة.. هزها.. وأدناها من أذنه.. نظر فيها، وفكر إن كانت قد توقفت فى الليل أو فى النهار، فهو لم يرها منذ آخر مرة نظر فيها.. عندما عاد آخر مرة ونام.. آخر مرة.. ترى.. متى كانت تلك الآخر مرة؟

وضع الساعة فوق المنضدة.. وتوقع نزول الماء.. صحيان الناس لتحدث الجلبة ويعرف كم الساعة.. لكن الصمت الرابض يكابر. يضغط فوق التجاويف.. وصوت وقع بعيد يتناهى إليه وهو قاعد. لكن الحك يحدث..

كان يحدد الوقت من خلال الضوء المتسلل عبر شيش النافذة إلى الحائط المقابل. ويرسم هناك خطًا رفيعًا بجوار برواز لصورة زعيم ثورى يحبه.. خطأ مألوف يتزامن وجوده مع تمام السابعة والنصف وخمس دقائق.. فكر فى غياب الخط، وأن الوقت الآن

قبل السابعة. أو بعدها.. نهض ليفتح النافذة، ذلك سيأخذ منك وقتًا..

أرجأ هذا البعد نزول الماء وغسيل الوجه.. لكن.. استرعى انتباهه لوحة التقويم اليومى المشبوحة إلى جوار صورة الزعيم الراحل، وحيث مكان الضوء المفقود ٢٢ إذًا فاليوم هو ٢٣ .. تساءل: أحقًا نحن الآن فى هذا التاريخ؟.

حاول أن يتذكر آخر مرة انتزع فيها ورقة النتيجة.. حين فشل. أوعز ذلك لركود المخ المكبل بالصمت.. لن يفيق الرأس إلا بكوب الشاى ووضع الدماغ تحت الصنبور لا يهم إن كان اليوم هو ٢٢ أو ٢٣ .. المهم أننا لم نزل فى بحر الشهر نسبح. ننتظر بلوغ الشط. وهو يوم واحد موعد قبض المرتب.:

وتذكر المذياع. هرول نحوه، يمكنه تحديد الوقت.. كان التيار - أيضا - مقطوعًا.. لم يفزع.. دائمًا ما ينقطع التيار فى مثل هذا الوقت من الصباح.. أو من النهار.. لم يعد يدرك.. وحمد الله على بعض الضوء المتسرب عبر ثقب الباب والشراعة.. كان الشك قد بدأ يساوره لضيق فتحة أسفل الباب.. تذكر جريدة الصباح..

ليست موجودة.. لعل البائع تأخر.. أو يكون مريضًا.. وربما يأتى بعد قليل.. أو.. وقعد ينتظر ما يمكن أن يحدث بعد انقطاع الماء والكهرباء وضياع الوقت غير المعروف..

تثاؤبه.. مباغتة، خمشت بأم رأسه.. تثاؤبة مستطيلة النبرة لرجل قوى وسفيه.. رجل تيقظ توا من نوم عميق.. متقطع.

يبدو أنه يتمطى الآن لينفض عن بدنه الكسل.. تثاؤبة اقتحمت الباب الموصد واستقرت برأسه المندهش.. أعقبها الرجل بآهة قرف دفين.. وصوت لنفس محشرج بدا كخوار ثور ينفض التعب.. ثم أعقب ذلك كله لحركة كرسى ثم وقع رتيب لحذاء فظ.. فوق أرض السطح.. شعر بمثل هذا الوقع منذ وقت قريب.. قبل الصحو.. أو فى الحلم. لا يدرك.. ثم تحرك الكرسى وكف الوقع وحط الصمت..

انتظر، مرهف السمع، أن يعود الوقع. لم يحدث.. فارتاب.. ترى من يكون صاحب هذا الخطو؟ واقترب من الباب. وضع أذنه فوق خشبه العتيق.. عاد وقعد وفكر: ربما صعد أحد سكان البيت ليشم الهواء..

نهض واقترب بخطو وئيد.. مد يده ليفتح.. على الأقل ليسأل عن الساعة.. ملوث الترباس بالصدأ.. لم يستجب لجذب اليد.. انقبض: كيف بلغ الصدأ الترباس.؟... هرول صوب النافذة. دفع الشيش، صدر عنه صوت تزييق غريب.. واجه جدارًا عاليًا يحجب الشمس.. لم يكن موجودًا بالأمس.. قعد، وشعور العزلة يغزوه.. لم يجزم إن كان الجدار جديدًا أو قديمًا.. فالشيش لم يفتح منذ وقت طويل.. مع أن الجلبة كانت تأتى إليه كل صباح وتوقظه..

بدأ يشعر بالحر وهو يرهف السمع لذلك الوقع الذى بدأ.. يدنو ويدب، ويتوقف.. وانتظر حدوثه.. وقد عجز عن فعل أى شىء يحرك ركود رأسه.. تراوده رغبة فى الصراخ... تجيش بالصدر،

يختلج.. دفع ذراعيه بحركة مباغتة.. وأنزلهما بنفس الحركة.. دار فى الغرفة وقد بدأ يجأر بلا صوت.. ينبغى أن يصل صوته لذلك الرجل بالخارج.. فرك أصابعه.. نظر إلى الحوض، الصنبور، المذياع، الجدار..

منتظرًا حدوث الوقع..

بدأ الوقع يحدث.. يبتعد.. فجاب الغرفة كطائر محبوس. ثم توقف الوقع، وتحرك الكرسى.. وساد صمت كئيب.. ود لو عاد ذلك الوقع.. جأر بصوت عال.. شد الترياس.. دق الباب.. لعل الرجل يتحرك.. يجىء.. ويفتح له فموعد الخروج حتمًا - قد آن.. توقف عن الصراخ حين سمع حركة الكرسى.. تحفز.. سوف يحدث الوقع، ويجىء الرجل.

انتظر... انتظر.. أيقن أن الرجل قد تحرك وقام واقفًا.. والتفت، ولم يبرح مكانه. ثم قعد.. حركة الكرسى أوضحت ذلك.. فهو بالتأكيد يستعمل الكرسى بالمقلوب بحيث يضع ذراعيه فوق مسنده ويغفو.. يتكاثف الصمت فى الغرفة.. ينمو فوق صدره.. ودق بقبضته فوق خشب الباب، كمن يفتعل لنفسه صوتًا مغايرًا.. منغمًا.. يحد من شعور التوتر.. هدأ قليلاً.. وانتظر تحريك الكرسى حين شعر بالتعب قال فى نفسه.. ربما حمل كرسيه وذهب وعلى الآن كسر الباب وأخرج..، لكن تزامن تحريك الكرسى مع فكرة كسر الباب.. تبسم وهو يصغى لصوت الوقع الذى بدأ يدنو رويدًا، وئيدًا.. رتيبًا.

وتوقف.. ثم تباعد.. وتحرك الكرسى فى تحد وغطرسة: يبدو أنه عدل من وضع الكرسى، وقعد على حذر. مركزًا كل حواسه على الباب، تطامن.. لقد صار أحدهم يراقبه.. يحرسه.. لكن لماذا. ويمور الصمت بالغرفة.. انحشر فى رأسه.. صار له رائحة، اختنق. حك الخف بالأرض. هبد النافذة. صدر عنها صوت مفزع.. اهتز.. وبدأ الوقع.. متوترًا. أكيد.. هو يتحفز بالخارج لفعل شىء.. فقد توقف الخطو. صرخ. جو الغرفة يردده.. جهر بكلام غامض.. ثم أوضح..

افتح.. أقول لك افتح.. أريد أن أتحدث إليك:

لم يجب صاحب الوقع.. لم يتأثر.. فاقتعد الأرض.. شعر بالهدوء. لكسر حدة الصمت.. انتظر الوقع.. لم يحدث أوعز ذلك لاطمئنان الرجل الخارجى لدخول الآخر مرحلة الهذيان.. منذ متى وأنا محبوس هنا.؟ لو فتح الباب يمكننى معرفة المخبوء لى..

تقهقر إلى الوراء.. وتحفز.. ودفع بدنه نحو الباب.. بابه الهش المتهالك لم يتحرك.. اقتعد فراشه، مدهوشًا.. نظر حوله.. حدق.. نهض. أزاح المنضدة نحو الباب.. اعتلاها.. لعله يشاهد ما يحدث بالخارج من خلال كسر قديم كان بشراعة الباب العالية.. لكن كانت الشراعة بلا كسر..!

هبط مهرولاً. رقد فوق الأرض لينظر من أسفل الباب.. اصطدمت عيناه بعينى الرجل الذى بالخارج.. هو الآخر ينظر إليه.. راقدا فوق الأرض..

أيقن أن الحارس قد خدعه وخلع حذاءه بعيدًا وجاء على أطراف أصابعه.. نهض واقفًا.. ورقد سريعًا، اختفى الرجل.

نهض منتظرًا حدوث الوقع. لابد أنه يلبس الحذاء.. وتحرك الكرسى ببطء.. يبدو أن الرجل يقرب الكرسى من الباب.. فالوقع عاد يدب برتابة. قريبًا.. وئيدًا.. ثم دبيب عشوائى.. كان الرجل قد تعب من ذلك الوقع الرتيب، دب بضيق رائحًا.. غاديًا.. فى تلك المساحة القصيرة أمام الباب.. قال بصوت عال: افتح.. من تكون أنت.؟ وقال: يجب أن تفتح لى.. أريد التحدث معك.. وقال: أنا عطشان.. افتح واسقنى..

توقف الوقع.. وكأن الرجل تأثر بالكلام.. ابتعد قليلاً.. وتحرك الكرسى، وران الصمت.. كأن الرجل يفكر وهو لا يمتلك حرية الفعل حياله..

وعاد الوقع رتيبًا.. كأن الرجل تذكر واجبه العملى المكلف به. شرب من زجاجة الماء. ثم ألقى بدنه فوق الفراش.. حدق فى السقف.. بيوت العنكبوت تتكاثر.. تباعد الوقع.. رويدًا.. توقف.. تحرك الكرسى..

يبدو أن الرجل قد اطمأن لذلك الصمت السائد فراح يغفو إلا أن الآخر صرخ بغتة.. وبغتة تحرك الكرسى.. وعاد الوقع.. بتوتر زائد، ودأب..

إطلالة وفية

كلما فتحت نافذتى، تطالعنى شرفة البلوك المقابل بغسيلها الأبيض المنشور. ترجف البدن ارتجافة وجد مترسبة، ويطفو بالرأس شعور حميم كان يربض بقاعى. هنا، وراء الغسيل تكمن النسوة.. يعشش بأركان البيوت، حيث تنمو آمال الذهاب وتوق العودة، فأذكر تلك الأيام الفائتة، زمن السويس، وفراغ البيوت المثقوبة.. شرفات مهجورة.. ضفائر الثوم والبصل ماتزال معلقة.. حبال مقطوعة تدلت بثياب رثة نخرها الرصاص وأبخرة الأرض والبارود.. أذكر، وعيناى تتابعان صفوف الشرفات المتراصة بالبلوكات لتوحى بأن ليس هناك فرق بين السكان، فأحصى النوافذ والشرفات وأقول فى سرى.. إن الرجال والنساء قد تلاقوا ليلا على خير ووفاق فكان هذا الغسيل المنشور الذى تتبارى النسوة فى تنشيره أيام الخميس والجمعة والأحد بكثرة تلفت النظر.

لكن الشرفة المواجهة لم تكن تخلو من غسيلها ليوم واحد، أردية نوم لرجل وامرأة.

يدفعنى هاجس غريب لأوارب شيش شباكى، وأنظر دون أن يكشف أحد من الجيران مراقبتى.

كانت امرأة فى الأربعين من العمر.. متوردة.. دائمًا ما كانت توارى كتفيها بفوطة وجه وضعت فوق حمالة قميصها الشفاف، وكثيرًا ما كانت الفوطة تنحسر عن الكتفين عندما تمد الذراعين لتصل لآخر حبل بالمنشر وهو المواجه لى. ألمح شعرها المبلول ملمومًا وراء ظهرها كأنها خرجت توا من حمام الصباح.. ثم تولى وجهها المبهج المبتهج نحو آخر الشارع.. وبتركيز تنظر بحذر عند المنعطف المؤدى لشارع الترام، وهى تلوح بيدها.

أوقن بأن تلويحها ذاك لزوجها المنصرف الآن، إذ لم يكن بغسيلها المنشور ما يدل على وجود أطفال تودعهم فى صباحات المدارس.. يغمرنى دفء. وأقول فى نفسى، حتمًا، هناك ظلال من السعادة تكتنف ذلك البيت، وأن زوجها لابد مبسوط النفس راضيًا لحد إثارة الدهشة.. من يكون هو؟

فكرت لو شاهدته.. أهو جدير حقا بهذا الجمال الآسر لكننى لم أوفق لذلك.. منعنى شعور الخجل، ربما يرانى أحد الجيران وأنا أتدلى برأسى لأنظر نحو المنعطف الموازى لمسكنى، أو تحملنى ألسنة النساء، وتمضغنى أفواه الرجال القاعدين فوق الدهاليز، وفى مداخل البيوت تحتوينى النافذة.. تأخذنى.. أشاهد الوجه

المتألق ملفوفًا بطرحة بيضاء، مقعيًا جسدها المخبوء وراء شيشها المواْرب، فى ظلام الغرفة تتفحص النوافذ مليًا وخفية.. تدور عيناها على منافذ البلوك المقابل الواقع فيه مسكنى. تدور بتسلل رتيبة حتى إذا استقر نظرها على شيش شباكى أقعيت مسرعًا مرتجف القلب.

وتواصل النظر المراقب باستمالة رأسى رغبة فى رؤية نوافذ وشرفات الجوار، فألمح على الوجه عبارات الحزن والأسى الدفين، وألمح مرة أخرى، ابتهاج أدرك بأن عبارة الأسى والحزن لامرأة لابد، مجاورة قد نشرت غسيلاً، وغسلت شعرها توا. وتبتهج لامرأة أخرى قد اعتمدت بذراعيها وصدرها إفريز شرفتها. وجلست تراقب، بفضول النافذة المواربة دون أن تحول نظرها، كأنها تنتظر ما سوف يحدث بعد حين بنافذة المرأة المخبوءة كانت تدرك جيدًا بأن المرأة الجالسة قد أفرغت نفسها للنظر وتبادل الهمس وإرسال إشارات، تؤكد بغيظ خفى، بأن المرأة المخبوءة تفعل شيئًا، وفى عز النهار، فتغمر الوجه ارتجافة رضا.. ثم تسدل الستارة وتغيب، هناك بالداخل.

ينتابنى هاجس الدهشة، أخمن كالآخرين، بأن لابد من شىء لذيذ يحدث الآن بالداخل.

يباعدنى شعور التطفل، مالك أنت والناس؟ فأشيح بوجهى بعيدا، فى الوقت الذى تداهمنى فيه فكرة تكرار غسيلها، وأتوقع أن أراها الآن، لو التفت برأسى ونظرت، وبالفعل أنظر، فأراها وقد وضعت الفوطة وبدلت ثوب نومها، وشعرها المبلول متهدل فوق

ظهـرها، وهـى تبـدأ فى تنشـيـر الغـسـيل.. نفس ثيـاب الأمس، مع تبديل غيـر ملحوظ فى وضع أماكن الملابس، فغسيل الحبل الأول يأخـذ مكان الحـبل الثـانى، وهكذا .. توقظ ليلى الدهشـة.. تغـالب نومى..

أترك نافـذتى مـواربة.. يتـحـول شـعـورى بالتـأمل المندهـش لنوبة انتباه مسيطر يلهب نظرى الشغوف أتلهف لمعرفة ما يحدث، خاصة وأننى لم أر لها زوجًا، حين تعمق الليل، وشمل الكون نعاس غاشم.. ألمح نـافـذة المرأة تفـتـح قليـلاً، توارب وقـد أطفئ نورهـا المصـفـر، وأضـيـئت بنور أحـمـر خـافت بدا فـى ظلام الكون كـعـين حـمـراء يتلاعب فيها لون أبيض.

كان رجـلاً، يلبس قفطانًا، ويتـأبط كـتفهـا العـارى المنحنى قليـلاً بجسـدها الذى ناء مع ابتسـامـة تحـمـل وهـى تسـوى له ذيل قـفطانه الأبيض الموضـوع عند وسطه، وهـو يجـرجـر نفسـه بهـا مـقـتـربًا من السرير الذى ظهر نصف لعينى.

ضحك وهو يضمها إليه ويستلقى بها على ظهره.. قبلها وداعب عنقها وهى تعتدل واقفة لتتراجع.. دغدغنى خجل ممزوج بابتهاج غريب..

كانت تتقدم من النافذة.. تباعدت، بجسدى، وهى تغلق النافذة لتحد من دهشتى. أهو رجلها؟ تساءلت.

قررت، صباحًا، أن أراقب المسألة عن قرب.

كان شباكها مواربًا.. حين نزلت، توجهت نحو الشارع مؤجلاً قرارى لوقت آخر فوقت ذهابى قد أزف..

عند انعطافى للشارع الآخر المؤدى لمحطة الترام.. لمحت شابًا وسيما قاعدا فوق كرسى متحرك، يدنو من المنعطف ببطء، وقد التفت برأسه عاليًا إلى الوراء. تتبعت نظراته التى تقابلت مع يد المرأة التى كانت تلوح له بابتسام، غضضت بصرى سريعًا.. ارتبكت.. كان يقول لى:

- لو تسمح.. ادفعنى حتى الأسفلت..

وكان يغلق زرارًا بأعلى قميصه حين لمحت نوطًا عسكريا مدلى من عنقه قال:

معذرة.. كان يجب أن أتركه بالبيت، لكنهم فى المستشفى يهملوننى بدونه.. كنت أدفعه فى صمت.

يوم الزلزال

● مناظرة

دخلت زوجتى المطبخ لتعد وجبة الغداء، وكالعادة اليومية، اشتبكت بحديث الود. عبر نوافذ المنور، مع جارتنا.

قالت الجارة بصوت هادئ ومتفاخر.. مخلوط بنبرة تواضع مصطنع..

- ياختى هاتى العيال وتعالى.. اتغدوا عندنا.. والنبى..

قالت زوجتى بصوت شبه منكسر.

- الله يخليكى ياختى.. يدوم يارب.

- والنبى.. نتغدوا سوا..

- مرة ثانية.. يوم ما تفرحى بعيالك إن شاء الله.

قـالت الجـارة بإصـرار وهـى تعـدد أنواع الطعـام الذى تصنعـه دائمًا..

- عندنا أكلة حلوة.. أرانب.. الراجل عاوز ياكل أرانب.. لازم..

كان الانكسار واضحا بصوت زوجتى..

- بالهنا والشفا..

وصـوت ارتطام الأوانى يطغى على الصـوت.. وجاءت بالأطبـاق.. كتمت رجفة.. وضعت الأطباق أمامى فوق المائدة وهى تؤكد لى..

- سامع؟ تقول أرانب!

إشعـار متـعـمـد ينبه مـشاعرى المرتجـفة بمدى تواضع حـالنا.. اهتززت واهتزت هى.. كانت الأرض هى-الأخرى تهتز.. هزات فزع، جعلت سكان البلوك يهـرعون بالنزول بأثواب البيوت، تاركين أبواب الشـقق مـفـتحـة. توقفت أمام بـاب شـقـتى، حائرا بين رغبـة النزول والبقاء بدافع فارق زمن الهزة الذى - مؤكد - سيتوقف حالا.

تتاهت لأنفى روائح لطبيخ يحـترق.. تعلو الروائح.. لمحت دخـانا يتسـرب عبـر فضاء شـقة جارتنـا فأقبلت داخـلا.. توجهت فـورا نحـو المطبـخ. دخـانا يعلو.. يتكاثف.. أطفـأت مـفـتـاح الموقـد.. والأنبـوبة رفعت غطاء الإناء المحترق انتشر دخان الاحتراق.. كان العـدس قد اسود قعره..

تناولنا غداءنا.. أوينا معًا إلى الفراش.. نزعت ثوبها البيتى. استلقت إلى جوارى.. لفت ذراعيها حول عنقى.. رأسى، فانبعث دفء لذيذ بأوصالى.. ضمت رأسها مرسلا الشعر إلى صدرى.. ترددت أنفاسها الحارة وهى تقول.

كتمت الفحيح الصادر عن فمها المرتعش بفمى.. أقول:

- حقا.. تحبيننى؟

- أنت أبو عيالى..

كانت نشوى وهى تواصل.

- أنت كل حياتى يا زوجى الحبيب.

- وأنت يا أم عيالى.

- ربنا يخليك لنا.

وارتاح ورأسها فوق صدرى، ربت على الرأس.. هناك شىء يهتز فينا.. ربما رغبة نوم الظهيرة.. لكن. قلت:

- ماذا تفعلين لو مت..؟

قبلت يدى بخوف وقالت:

- حرام عليك.. تتركنا لمن؟

وغمرنى شعور جارف بسعادة مباغتة.. اهتززت لها. قالت: جسمك يرتعش؟

واستمر الاهتزاز.. روعنا.. زلزال. تركت لى الفراش بذعر وانتفضت ارتدت ثوبها البيتى، حملت طفلتها وهرولت وهى تهبط درجات السلم..

• تماسك

بعد الغداء، فتحت الثلاجة - ثم فتحت الدرج حيث نحتفظ بالفاكهة، لم أجد سوى بلحة حمراء واحدة فى ركن الدرج.. تناولتها ومددت يدى بها لابنى.. قال وهو يعيد يدى بحنو.

- لا.. كلها أنت،، لا أريد..

أصررت على أن يأخذها.. قلت.

- سأشرب شايا.

قطع صوت الأم العالى صراعنا الودى.. صاحت بحنق فاهتزت المشاعر الطيبة.. اهتز الجميع الولد.. البنت.. الأم النجفة.

هرعت هى نحو الباب.. فتحته كان الهرج مخيفا.. تفتحت كل الأبواب. هبط السكان يهرعون بأطفالهم.

شاركتهم زوجتى الفزع والهبوط برفقة الابنة.

توجهت نحو النافذة قائلا للولد أن ينزل.. فلزم الصمت ولم يتحرك وحين استقر الجميع بأسفل. وقفوا فى وسط الشارع.. تطلعت زوجتى لطابقنا الخامس وتصرخ..

- يا رجل هات الولد وانزل.. انتابنى توجس.. توقفت مدعيا قوة مستمدة من فكرة متانة بنايات الحكومة، فهى جديدة وأقوى من بنايات الأهالى.

قال ابنى الذى تماسك بتماسكى..

- الكل نزل يا بابا.. ألن تنزل؟

قلت باطمئنان..

- خلاص. الزلزال انتهى.

وحين صعد الجميع. وغلقت الأبواب.. ربت بيدى، وبقوة، على رأس ابنى بأسى دفين ورغبة مكبوتة فى البكاء...

فى الميدان.. تتبع ظله الملقى على الأرض، تعبا.. يحاول أن يسبقه، بطئه..

وهى إلى جانبه بثوبها الأسود الطويل، تجرف تراب الأرض بحافته وخفها القديم، تراود ظله بظلها القريب، تحاول الدخول فيه، الامتزاج به..

لكنه كان يعرج قليلا فيتباعد الظل،.. ويمشيان..

يتفاديان تلاحم الناس فى الميدان..

هو بكهولته المبكرة وقميصه المهرول وبنطلونه الكاكى ودفتر تأمينه الصحى..

وهى بوجهها المتغضن المتصابى وطرحتها كالحة السواد. كان وجهتهما مبنى هيئة البريد، توقف هو برهة ليلتقط أنفاسه المنصهرة تحت شمس الميدان..

توقفت هى أمامه خطوة، نظرت إلى ظله الذى انفصل عن ظلها.. قالت بغضب،

- أنا تعبت..

انشغل بالتقاط أنفاسه المتعبة.. نظر إليها وصمت.. قالت بضيق..

- من صباح ربنا ونحن نلف، من التأمين الصحى لصرف المعاش.. أوف.. زهقت.. زمجر هو بامتعاض واضح كأنه كان يتوقع أن تفعل ذلك، فمنذ أن خرجا من بيتهما البعيد وهى تتأفف فى صمت.. قال..

- أنا أيضا زهقت.. أصبحت امرأة لا تطاق، تلاقت غضون الوجه تحت الطرحة.. تباعدت عنه وصعدت الرصيف.. وقفت على يسار ظلها فوق ظله.. قالت بصوت سريع واضح..

- خلاص، طلقنى.

اقترب من وجهها المكفهر بوجهه المتذمر.. قال..

- ألف مرة تطلبين منى هذا.. خلاص نتطلق..

قالت بحنق غير عابئة بإسماع المارة..

- ولم لا تفعل؟ لأن لا أحد لى؟ لا.. أصح..

كانت تشعر بأن كل المارة - والذين سمعوا - يعانون - بالتأكيد- مثلما تعانى..

تولى بوجهه عنها وقال.

- مقرفة..

ترك فى الخلف ظله..

تابعت هى الظل المتحرك.. واجها الشمس المتسلطة، على الميدان.. قالت..

- أنت أكبر مقرف.. كبرت وخرفت..

قال وهو يتجه صوب محطة الأتوبيس العمومية، طوال عمرك وأنت هكذا.. مثل الموج..

قالت وهى تبتعد عنه، أمامه، ولتسمعه صوتها.

- خذ عيالك..

كان نعاس الصباح معلقا لا يزال بعيون الناس، وهم يمدون الخطو نحو مواقف عربات الأجرة حين لزم الصمت قالت مرة أخرى..

- خذ عيالك..

مد خطاه ليتفادى طريقا طوليا يعج بالعربات، وظله على يمينه.. كانت تسرع أمامه.. قال:

- على المأذون طوالى.. هذه المرة لن أتراجع..

قالت بنبرة بغض..

- ليتك تفعلها مثل الرجال.

رفع دفتره ليقى رأسه وهج الشمس..

تقدمته وثوبها الثائر يجرف الأرض.. قالت:

- ابتعد عنى.. اذهب.. اركب أتوبيسا آخر.. وارت وجهها بطرف الطرحة وهى تتباعد..

لمحته يعرج محاولا اللحاق بها.. قال.

- اركبى أنت أتوبيسا آخر..

فصلت تجويف ما بينهما عربة قادمة..

كانت تقول..

- ابعد..

وكان يقول وهى تهرب من سماعه..

- ابعدى أنت - أنا لا أريدك. ولا أُريد عيالك.

قالت من فوق الرصيف الآخر.

- عيالك طالعين مثلك..

- لقد صاروا رجالا ويقدرون على قرفك..

اتخذت طريقها نحو المظلة الكبيرة - كان الناس هناك. لم يكن هو إلى جوارها حين نظرت بطرفها..

كان هناك على الرصيف الآخر وقد تحفز بدنه للقاء صديق حميم اقترب فرحا، شد على يده بود وتماسكا فى حضن وتقبيل.. ابتعدا وتصافحا ثم التصقا وقبل أحدهما الآخر، وقد تخلص وجهه

الكهل من سمة التذمر والضيق.. اعتدلت ملامحه وانفجرت أساريره، كأنه وجد من يزيل غضبه المشبوب.

كان يلمح بجانب عينيه وجه زوجته المنتظرة هناك وقد توقفت تبحث عنه بين المارة بعيون لم تكن ترى جيدا، توارى فجأة عن نظرها.. غاب فى زحام الميدان، أحس هو بشىء حلو يغمر نفسه فابتسم، وأعاد تقبيل الصديق.

كانت تشرئب برأسها باحثة بوجه انتابه القلق، حين لمحته قادما أشاحت بوجهها بعيدا، لم تجد مناصا من انتظاره، ولم تكن تعرف ذلك الأتوبيس المؤدى للمأذون، تجاورا، أنزل يده المرفوعة بالدفتر حين سقط ظلها فوق رأسه.. تلاقى الظلان وهما يتطلعان لمبنى هيئة البريد.

قيظ الليل والنهار

مطوق العنق بحبل مجدول وقصير، مرفوع طرفه ومربوط بقضيب نافذة صغيرة محفورة فى جدار سميك بمبنى قسم الشرطة المنصهر بقيظ الشمس: متهدل الرأس نحو الأرض باستكانة..

أذناه المخذولتان تختلجان. يهش بهما ذبابا معاندا تكاثف حول الجفنين المرطبتين بما يشبه الدموع والرمد.. بخمول يهشه.. يعود.. يحوّم.. يهشه بأسى الذيل القصير.. يراود نصفه الخلفى إجهاد طاغ.. يقعى بوطء التعب..

يشد الطوق العنق. يخنق.. يتوقف.. بزقاق موحش خاو، تغمره الشمس... تتناثر بأرضه الترابية أكوام من «زبالة» متباعدة عن متناول فمه اليابس.. خبز قدده العراء، وأطعمة أميرى ألقى بها عساكر القسم المقيمون. بأوقات القرف اليومى وصد النفس عن

أكل مكرور طعمه، عافته أجواف تصلبت.. الحبل المطوق يحدد ويحد رغبة الجوع والبقاء واقفا..

لو مد العنق نحو الأرض، سيشد الحبل ويشنق.. بين الفم وكوم «الزبالة» شبر واحد..

بالأمس جاءوا به.. وأوثقوه.. كان معلوفا لحد الشبع.. لحد لم يكن يشعر معه بالحبل.. واقفا كان مرفوع الرأس. جامد البدن ويقظا، وموجها حاسة السمع صوب النافذة. ينصت لصوت صاحبه العجوز المألوف الذى كان يأتيه ضمن أصوات رجال غرفة الحبس عبر النافذة وبداية الليل.. صوت رقيق وحان.. سكن الرأس طويلا. ظل يسانده ويمده بقوة الاحتمال والصبر واقفا على أربع يقاوم الليل الممطوط.. صوت عال يطلقه صدر مخنوق بالقهر.. (اصبر - بكره تفرج -..) لم يكن يدرك معنى القهر الآتى من القضبان. لكن الصوت يؤنسه..

فيصدر نهيق أسيان يدركه صاحبه المحجوز وراء الجدار الفاصل بينهما، فيعيد الرجل صرخة القهر التى كانت تتخافت مع تقدم الوقت الثقيل، وتضيع فى ضوضاء رجال الحجز..

فى الليل القاتم المتعملق، الذى جثم فوق المبنى، وصبغ الدنيا بالسواد. تعالت أصوات وتداخلت بعنف..

مع صفعات أكف شرسة.. وزعيق. همهمات.. ثم حط صمت. ودخان سجائر راح يتسرب عبر القضبان رويدا ليكظمه البرد المتوالد مع تعاقب الوقت الموحش.. ليظل وحده منكس الرأس.

تداهمه غفوة، ليتراخى البدن لحظة يشتد معها الحبل ويخنق العنق، فيفيق منذعرا، محاولا الوقوف والثبات.. يصغى.. لعل الصوت المألوف يجىء.. لكن.. لعل صاحبه قد غفا هو الآخر.. فلا صوت يأتى من النافذة، ولا همس، ولا دخان.. ليظل يقظا على الأقدام. مصلوبا. يناضل الإنهاك المستبد المنساب إلى المفاصل..

الآن. والفجر يوشك على الطلوع - ربما يصحو صاحبه.. لكن النهار يزحف بخطى وئيدة.. نهار ثقيل. يغرس لونه الكئيب فى الجسم المنهوك.. يذيب خلايا القوة. يفقده القدرة على الوقوف والإصغاء. يثاقل الرأس، فيتهاوى. ويتطاير عنه ذباب صباحى قاهر.. يعاود، محوّما، ويحط مع الوهن المنتشر ليقوض المفاصل، يفككها. ويتهاوى.. يخنق الطوق العنق..، مع المقاومة، يتفشى الوهن.

يحاذر التساقط والارتكاز. يشتد الطوق.. واقفا كان وصاحبه العجوز - خارج أسوار محطة القطار بالميدان الفسيح - تحت شجرة لا يزال ندى الصبح الجديد معلقا فوق أوراقها الوارفة..

مفكوك عن ظهره عريش العربة الكارو المركونة على جذع الشجرة كرجل يرتاح قبل رحلة التعب ببداية النهار.. وكانت يد العجوز تفرط له البرسيم وأوراق الخس فوق الرصيف المتجدد المرتفع حتى لا يعانى وجع مد الرقبة عند الأكل.. كان بهدوء. مطمئنا..

عينا الرجل ترقبان بوابة المحطة الكبرى.. ينتظر أول ظهور الوافدين.. حاملات طسوت الجبن القريش والبيض، أقفاص البط والدجاج والخضر الطازج، الآتين من الريف بقطار الفجر المنهك للانتشار فى أسواق المدينة..

بوقت إعداد العربة وربط العريش بظهر الحمار المتخم بالفطور، والرغبة فى العمل. يركض الرجل بين البوابة وأول الوافدين، يدعوهم بصوته المازح ووجهه الضحوك، أن يركبوا معه - فلديه عربة متينة «دلوعة» ومعه حمار صغير حنون، يدرك مسالك الطرق وحده.. يتفادى «المطبات» وقضبان الترام، ويحافظ على طسوت الجبن والبيض..

ويضحك، وأخاديد الوجه تتكاثر. يوارى صفاء عيونه حزن مؤقت، وهو يقول «للفلاحين» الذين يولونه ظهورهم بيتعدون نحو عربات الحنطور.. (عجبى عليك يا زمن). (بكره تفرج).

صوت مضعضع أسيف، يعبر أذنى الحمار الذى تأهب للمسير. صوت يتكرر، يأتى من وسط الزحام والقيظ الذى يعلو ويشتد ويغمر الميدان ويزيح ظل الشجرة.. بصباحات أخرى، كان الرجل يجلب له قشور البطيخ ويقول بحنو ويده تداعب رقبته.. (بكره تفرج.. وتأكل فول، اصبر..) ولا يدرى أى منهما معنى لذلك الفرج المنتظر الذى سيأتى غدا. لسنوات تعاقبت.. تخللتهما.. ليل.. نهار.. دونما انتظار لذلك الفرج.. أله شكل؟ لون.؟ طعم؟

أمس مر. واليوم.. والرجل فوق حشية من القش ينام، ومخدة كانت قاعدة لكرسى عربة حنطور، باعها ذات يوم بعيد حيث كان حوذيًا قديما ضربه الزمن الغادر، وحوله إلى «حمّار كارو..».. تأويهما «مغارة» كانت دكانا مهجورا بشمال الورديان. ويتكئ الحمار على أربع. يأخذه نوم متقطع. مباغت الصحو. يؤرقه - كحارس أمين - تسلل القطط الضالة إلى المغارة ليلا.. وفى الصبح، يصحو الرجل - مرتاحا - يملأ الدلو ماء، وبالفرشاة يغسل بدنه الرمادى، وكأنه حصان يعده لجر حنطور يزف عريسا بوضح النهار.. بوسط الشمس.. و.. رجال الإزالة جاءوا.. باغتوه بظل الشجرة يرقب صاحبه العجوز المتحرك عند البوابة يتسول حمولة.. نهق وهم يخلعون عنه العريش. ضربوه على النهيق الذى بلغ أذنى الرجل المذعور.. ارتعد وجاء راكضا.. كانوا يجبرون الحمار على المشى.. صاح بهم أن يتركوه فهو ليس مريضا، لكنهم ولوه ظهور الجهامة.. قال لهم إنه لن يكرر الوقوف بالميدان وهم يتباعدون.. ركض وتعلق بالحمار. تشبث. دفعوه ليأتى بالعربة.

وفى القسم ألقوه بغرفة الحبس، وربطوا الحمار بالزقاق..

الفهرس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org